أحمد الجهادى

متاع

BOBST LIBRARY
3 1142 02904 6490

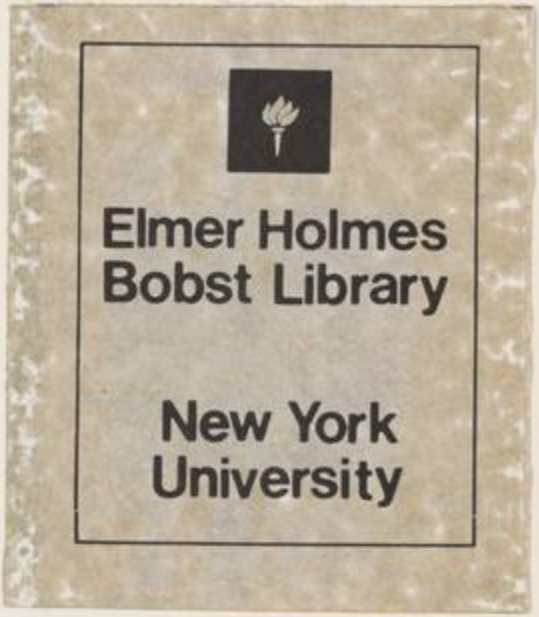

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

DATE DUE

78-961841

العربي السعودي عدد ١

عبدالله مناع

أنين الحجارة

Mannā ʿ, Abd Allāh

الكتاب العربي السعودي عدد ١

/Anīn al ḥayārá/

أنين الحيارى

تأليف عبد الله مناع

نشر
الشركة التونسية للتوزيع

PJ
7846
'A5487
A5
1978
c.1

فهـــرســـت المـوضـوعـات

الجـــزء الاول

الصفحــة	المـواضيــع
5	مـع الحيـارى
10	الـربيـع يعـود
12	يبـدو اني احببـت
14	نهـر الـدمـوع
16	اليـــك
17	الحـب اولا ؟ !
18	الخلــود
20	قصـر الشـك
22	الشـاب الاخـر
24	النصف الثاني ـ (نسخة واحدة)
26	انـت عمـرى
27	الـزوج الفيلسـوف
29	همس اوراق الصفصاف
31	بين الغيرة والحب
34	الحـب اولا
35	كيف باعت حبـى
37	الطائـر الاليـف
39	رجـل بـلا صـورة
41	زجـاجـة عبيـر
44	الاحذيـة الصغيـرة
46	الـزورقـان
48	ايـن الاحـزان
50	لقـد كـانـت جميلـة

مـــع الحيـــارى ! ؟

من نغمـة حيـرى فى نفس ..

من لحظة وجد حرقت الامس واليـوم ..

من ضياع استبد بالنفس والخطى ، اكتب لهم وعنهم .. لحيارى « المسرح الكئيب » .. المظلم .. والاليم ، والذى يعيش فوقه البشر وهم يقتاتون الياس .. ويقولون هزيمة يتلوها انتصار ، ويقصم ظهورهم الالم فيقولون شفق خصيب تعقبـه شمس دافئـة .. ويسحق الحزن قلوبهم وصدورهم .. فيقولون لحظات ضعف تجلوها لحظات قوة ونماء وتبرق فى ليلهم هذا بارقة امل خادعة .. مزيفة .. زئبقية .. تستميلهم .. وتستهويهم .. وتغرر بهم .. فتسلبهم كل شىء .. كل شىء حتى « الاحتجاج » ولو على طريقة جمهور المسارح حينما يتصايحون وقد انتصبوا وقوفا .. وقبل ان يحطموا المقاعد ويمزقوا ستار المسرح : رواية « بكش » .. رواية « تهريج » .. رواية « كلام فارغ » ..!!

وبين الالم والياس والحزن ولحظات الامل .. يسدل الستار .. عن « حياة » .. عن الالم والياس والحزن ولحظات الامل وصياحهم : افاق كل ذلك .. !

وتسرى همهمة .. بين الواقفين والغادين والراكضين على خشبة المسرح الكئيب « كيف » لماذا ؟ ثم يعقب ذلك صمت التذكر : نهاية معروفة .. منذ ان نصب هذا المسرح ، ولكنها .. غير مرتقبة ..؟!

* * *

فعلى جانب من جنبات المسرح .. على ضفة من ضفاف النهر .. على شاطىء من شواطىء بحر « الوجود » ولد الانسان « عاريا » من

كل شيء .. عارى القلب والعقل والنفس والجسد .. عاريا لا يعرف الحب ولا يدرك الطموح ولا يحس الالم ولا يفهم للسلوك معنى .

ودفع به الى خشبة المسرح .. الى ماء النهر .. الى موج البحر .. الى الخضم بعد ان علموه الكلام والقراءة والكتابة والسباحة .. الحب والحقد .. الكراهية والصفاء .. الضحك والبكاء .. « التمساحينية » والنفاق ، وافعموه ظنا بان على الجانب الآخر .. على الضفة المقابلة .. على الشاطىء الثانى تقوم مدينة السعادة .. مدينة الحب .. مدينة الصفاء .. والمودة : مدينة يجد فيها لطموحه « ارضا » ولعقله سماء .. ولقلبه جنة يرتع فيها ، مدينة لا الم فيها ولا شجن ... لا حزن فيها ولا دمع .. بل حياة سعيدة .. جد سعيدة ..

وانطلق .. اخذ يجدف .. يناضل ويزاحم .. يكافح ويتريث ... يتصابر ويندفع .. يبكى ويضحك ، الاحلام تملا راسه وقلبه ونفسه .. والآمال تدغدغ سواعده وهى تضرب قوية عنيفة .. وصدره يتاجج ويضج بكل ذلك وقد يرى البعض « اشباح » تلك المدينة .. وقد لا يرونها .. بل حتما لا يرونها ولكن .. دائما وابدا .. يتخطفهم حيوان او ملاك .. شرير او شيطان .. فيتوقف المجداف ... وتتسمر الاقدام وتصمت الشفاه .. وصدق الله العظيم :

« لقد خلقنا الانسان فى كبد » ..

- كبد ... وهو يحى منقبا عن مصادر استمراره ..
- كبد ... وهو يفكر فى امسه ويومه وغده ..
- كبد ... وهو يصهر طموحه .. عملا وكفاحا ونضالا ..
- كبد ... وهو يحب ..
- كبد ... وهو يكره ويحقد ..
- كبد ... وهو يغنى الليل والقمر ونسمات السحر ..
- كبد ... وهو فى احلى لحظات الحب والسعادة والهناء .. والتجوال ..

واى كبد ... بعد كل هذا .. ؟

ويعيش الحب بمختلف صوره والوانه .. بين موج الحياة .. وثنايا الوجود .. وفوق صفحات الزمن كاقدس شيء عرفه الانسان .. وامتع ما في وجوده .. واعمق الاشياء « معنى » في حياتـه ..

يعيش الحب : نجمة في الظلام .. قنديل في شارع مظلم ، في قرية كئيبة .. نسمات باردة في صحراء لافحة .. ينبوع عذب في ارض جافة صلبة جرداء يمنح الحياة .. بعضا من القيمة .. بعضا من المعنى .. بعضا من اليقين .. وكـل المعنى .. وكل القيمة .. وكل اليقين احيانـا ...

وقبل ان يلتقى الانسان بالحب .. قبل ان تطأ ارضه قدماه .. ويعانق صدره هواءه .. وتتبلل شفتاه برحيقه ، يلتقى بلحظات من الالم والشجن والتردد .. يلتقى « بالحيرة » ظل الحب .. عذابه اللذيذ .. جحيمه المستساغ .. جنته المليئة بالاشواك ، ليحضى العمر .. كل العمر في ذلك العذاب في ذلك الجحيم .. في تلك الجنة .. !

وعلى مر الازمان والعصور .. وبين طيات التاريخ .. وعلى ارصفة صفحاته ومن عهد « قيس بن ملوح » شاعر الحب وولهان ليلى والذى مزق قلبـه « ورد » فهام على وجهه في الصحارى والبرارى والقفار ، الى عهد دوق وندسور .. الحائر بين الطموح والحب وبائع العـرش والمطموح بالتاج البريطانى بعيدا عن راسه .. ليخلص « كله » للحب هائما في البحار على ظهر يخت لا يعرف الزمان ولا يابه بالمكان ، نجد ان المحبين .. كل المحبين حيارى .. تائهين حينا .. قياصرة وعباقرة ... فلاسفة وسلاطين .. مصلحين وعاديين .. رومانسيين وواقعين معذبين احيانا .. سعداء ابدا ، يلفهم ضباب الحيرة .. يطحنهم الشـك .. يعذبهم اللايقين .. يسعدهم الامل .. ويقض مضاجعهم « الغد » .. وكيـف يكون ؟ ..

محبو « الامس » كانوا حيارى مثلنا .. ومحبو الغد سيكونون اشد حيرة .. اشد عذابا .. اكبر سعادة .. واشد هلاكا .. فكل شيء يسير يسير الى الامـام ..!!

فحينما شقى شهريار.. على حب شهرزاد ، اخذته «حيرة» المحبين .. لغته .. وطوته .. وجعلته يتردد طوال الف ليلة وليلة فى ان يقول لشهرزاد المزيد عن نفسه .. المزيد عن قلبه .. عن حبه .. عن لوعته .. قبل ان يدركه الصباح ، ومضت الليالى بعضها خلف بعض .. فى خضم تلك القصص التى لم تكن لها نهاية .. والتى كانت ترد بها عليه كل ليلة ، والشىء الوحيد الذى كان يفعله هو ان ينظر اليها .. يتاملها .. يحتويها بعينيه ثم يتنهد .. يتاوه .. يبكى بكاء غير مسموع ..

وحينما احب روميو ـ مونتيكس ـ ابن مدينة فيرونا الايطالية والشاب الجميل وبطل الصيد والرماية واجرا واشجع المحبين واول من صنع السلالم الحريرية وصعد بها الى شرفة جولييت ـ كابلليتى .. جعلته « الحيرة » يتردد بين صوتين .. صوت القلب وصوت الطموح .. صوت الحب وصوت الحقد .. صوت السلام وصوت الحرب .. صوت الزهد وصوت اطماع والده وحزبه فى الحكم وانتصار عائلته مونتيكس او كابلليتى ولم يستطع شيئا ... غير ان يستسلم للمرض والضعف والهزال .. وتحول البطل الوسيم الى سائح شوارع البندقية وبائع متجول فى شوارع فيرونا وبلاط « آل كابلليتى .. »

وحينما احب العالم والفيلسوف والعبقرى « نيتشه » واحس ان ارض الحب قد احتوت قدميه .. زحفت الحيرة الى عقله الكبير .. والى راسه المدبر .. والى نفسه الابية المثالية .. واخذ يفكر .. والالم يقضمه والياس يبعده .. والامل يمضى به الى نهايته السعيدة ، اخذ يفكر كيف يقول لها « احبك » وكيف يهمس اليها برغبته فى الاقتران بها ..! وجاءته الفكرة .. فبعث باخلص اصدقائه ليطلبها له .. وليقول لها ما عجز هو عن قوله .. وذهب الصديق المخلص .. ولم يعد بعد ان طلبها لنفسه .. وترك نيتشة وحيدا .. بائسا .. ممزقا .. يتعزى بالكتابة عن « دموع الغبطة » ..!

وحينما احب فان كوخ الرسام والفنان وصانع الاعاجيب من الوان الطيف السبعة واراد ان يعبر عن حبه .. بما ينفح الحب خلودا وابدية،

احتار فى وسيلة التعبير التى تمنح البقاء لحبه .. وبعد ليلة طويلة .. ممضة .. هداه تفكيره اذنيه .. بعض نفسه .. وبعثها الى من اختارها قلبه ..

★ ★ ★

وفى كل صفحة من صفحات الماضى .. نجد الحب .. وظل الحب ونجد المحبين .. يتاوهون .. يبكون .. ويتقلبون على لظى من جمر ، والسر .. سر العذاب .. سر الالم .. سر القلق .. سر الحيرة .. هو « الخوف » .. والخوف من غد .. من « بكره » من اللحظة التالية .. من الساعة القادمة من انها لا تكون امتدادا للحاضر السعيد واللحظة الهانئة .. الخوف من ان يجف الحب فيصبح نهرا بلا ماء .. الخوف من ان تتحول وريقات الحب الرطبة الخضراء الى اخرى جافة ذابلة صفراء يتساقط بعضها خلف بعض .. الخوف من ان يتحول الوفاء خداعا والاخلاص زيفا واليقين تضليلا .. الخوف من الحرمان .. من نار الشوق .. من لوعة الهجران ..

« كل » هذا « الخوف » الدفين فى اعماق المحبين .. يبدد « سعادة» اللحظة ابدا .. يهدها .. يدمرها دائما ، ليبقى فى كاس السعادة .. بعض من العذاب .. شىء من التعاسة .. قليل من الالم ..!!

وقليلون اولئك الذين ساروا على درب :

« لا توحش النفس » بخوف الظنون
واغنم من الحاضر امن اليقين

ولو ان محبى الامس واليوم وغدا .. ساروا تحت شمس هذه النصيحة وقمرها ونجوم ليلها .. لكانت السعادة حقيقة لا حلما يهدده مشرق النور وضياء الصباح .. ولظل ليل الحب ورديا كما هو وكما كان .. ولبقى رحيق الحب شهدا عذبا نديا .. ولما تقاسم العذاب والالم كاس السعادة ... كاس الحب .. ومع ذلك يعيش البعض غافلين .. ويعيش البعض الآخر حالمين .. وبينهم وفيهم يعيش المحبون على جرعات من الامل .. ليعيش الحب « رجاء » ولتعيش الحيرة « واقعا » يضنى .. واننا متصلا ، كانين « ساقية » تحركها الرياح ..

الـــربيـــع يعـــود

نسى ان يقطع ورقة التقويم لذلك الصباح .. فلقد ملا عليه حاضره السعيد كل شيء .. ولم يعد ليحمله على ان يتذكر شيئا ، تافها كورقة التقويم ، ليمد يده فينزعها ، بل ولم يعد يدرى شيئا عن تلك الايام نفسها .. وهى تمر به مر السحاب .. ولم يعد ليدرى ان كان قد انقضى منها الكثير ام القليل ، وكل الذى كان يدريه عنها انها ايام «ربيع الحب» .. بنفثات الربيع الدافئة .. بعطره .. بدفقات حنانه ..!!

ثم تلبدت سماء ربيع الحب .. بسحابات الخريف السائمة، ليحس ان جفاف الخريف قد لمس كل شيء .. حتى حبه .. فاخذت اوراقه تتساقط .. ليبعثرها الهواء .. وهو يجرى خلف الاوراق الجافة .. يجمعها فليست تلك الاوراق الجافة الصفراء الا بعضا من نفسه .. الا بعضا من ذكريات الربيع الذى يحس انه مضى ..

هكذا كان يحس .. ويتالم .. وذكريات الربيع تملا فكره وقلبه ليعيش بها اسيرا يتعذب .. وسجينا يتالم ، ورفع عينيه ليرى ورقة التقويم التى نسى ان ينزعها .. ليرى ان نصف عام من عمره قد انقضى !..

ولم ياسف على تلك الايام .. او على بعض منها ، ولكنه آسف على ان ورقة التقويم ما زالت باقية فى مكانها .. وقد احالت الايام ورقها الابيض الى ورق اصفر كئيب شاحب .. عديد الثقوب ، اسف لان ورقة التقويم تذكره بذلك اليوم .. وتشده اليه .. فلا يعيش الا بذكريات ذلك اليوم .. والايام التى جاءت من بعده ...

ومر يوم .. وآخر .. وهو ينظر فى ورقة التقويم كل صباح وهى مازالت قابعة فى مكانها ، تثير فى نفسه لواعج الذكريات .. فتجشمه مزيدا من العناء .. حتى يضيق صدره .. ويضج الما وهو يحس ان ذكرياته اكبر من صبره .. واقوى من ان تتركه وحيدا خاليا ..!!

وامتدت يده لتنزع ورقة التقويم تلك .. فلعل ذلك يريحه ، وحين انتزعها بيده المرتعشة .. وطوح بها بعيدا عنه .. فاجاته تلك الكلمات التى استلقت فوق ظهر الورقة : « الذين يعيشون بالذكريات » هم حقيقة فقدوا املهم فى الحاضر والمستقبل » ..؟!

والتقط ورقة التقويم مرة ثانية .. وهو يسائل نفسه .. احقيقة ما تقوله ورقة التقويم ؟! احقيقة اننى واحد من اولئك ؟! احقيقة انه لم يعد لدى حاضر املكه .. او غد اترقبه ؟!

ثم ارتفع صوته وهو يحدث نفسه : ـ لا .. لا .. كاذبة انت يا ورقة التقويم ..!! فلست واحدا منهم .. حقيقة اننى اعيش بالذكريات ولكننى « انتظر » عودة الربيع .. فالربيع يعود كل عام ..

وقام يمسك بورقة التقويم الممزقة ، وهو يحاول ان يلصق اجزاءها ببعض .. فهى بقية من ذكريات الربيع الذى مضى ..

وحين كان يفعل ذلك .. كان يردد فى نفسه .. ان الربيع يعود ثانية يا ورقة التقويم !!

يبـــدو انـــى احببـت

لم يكن ليعرف الارق يوما ، ولم يكن ليعرف « السهد » يوما .. ولم يكن ليعرف كيف يكحل العيون نور الصباح .. لم يكن ليعرف شيئا من ذلك ، بل « سمع » سمع فقط !

سمع عن الارق والسهد ونور الصباح الذى يكحل العيون .. سمع كل ذلك ، وكان يضحك على عادته .. ويقهقه ساخرا من اولئك الذين ناصبوا الليل العداء .. وكرهوه .. وكرهوا ظلامه .. ونجومه .. وسحاباته التى يتدثر بها القمر ، فلقد كان الليل صديقه الحبيب .. الذى يلقى اليه بكل متاعب يومه فيحملها عنه .. ويتركه هو للنوم العميق ..

لقد كان يعمل طيلة يومه .. سعيدا بعمله .. ويكافح طيلة ساعات نهاره .. سعيدا بكفاحه .. كان يعمل ويكافح ويضحك ويقهقه ويعرق .. وياتى عليه الليل ليستسلم فيه لنوم عميق يخفف به عرق الكفاح .. ويخفف به كدح ساعات النهار .

ومضت به ايامه .. هكذا .. عمل وكفاح وعرق وسخرية ضاحكة من « الآخرين » .. حتى مرت به « لحظة » .. اختلفت عن كل لحظات حياته .. لحظة لم يستطع ان يحدد « نوعها » الى ان جاءه الليل .. صديقه الحبيب الذى تعود ان يلقى اليه بكل متاعبه فيحملها عنه ..

جاءه الليل .. ولكنه لم ينم . بل كان الارق فى انتظاره .. والسهد يستمهله عند السحر .. ونور الصباح يكحل عينيه وهو يبدد الظلام

وجاءه ليل ثان .. وثالث .. وهو لا يعرف غير الارق والسهد ونور الصباح !.

وبدا يتساءل حائرا .. وهو لا يدرى سبب هذا الارق والسهد ونور الصباح الذى تعرف عليه ، ولكنه لم يجد سببا .. فكل شىء يمضى كما هو .. وكما كان ، عمله الذى يؤديه سعيدا .. وكفاحه الذى يدفعه سعيدا .. وضحكاته التى مازال صداها يتردد خلفه .. كل شىء كما هو .!!

وصمت .. صمت حائرا .. ! ثم انشقت شفتاه .. لتخرج من بينها هذه الكلمات .. « آه يبدو اننى احببت » ؟!

نهـــر الـــدمـــوع

لا يكفى ان تكون الاول فى الحب .. انت .. انت حبى ؟

كان يبكى .. كان ينتحب .. وامام عينيه ستارة هلامية من الدموع، واقعه يبكيه .. والامس يتسلق اسوار الحاضر .. ويطل مبللا بالدموع .. والغد تلفه سعادة هلامية من الدموع ، وهو يتمطى مستسلما .. وسط ذلك النهر من الدموع .

وجاءه الحب .. وهو يتمطى يائسا نائما .. جاءه على جناحى فراشة ناعمة ملونة .. اخذت تطوف حوله .. وتصطدم برمش عينيه .. ويصدح جناحاها بموسيقى عذبة منغمة تناديه !

وصحى من دمعه .. من نواحه .. من ياسه ، لتجف الدموع على شفتى الحب .. ولتبدد الآهة العذبة انين النواح .. ولتمزق شموس الحب الستائر الهلامية من الدموع ..

وعاش مع الحب .. يتوسده فى السحر .. ويساهر قمره فى الليل ويحلم على ارجوانية افقه عند الاصيل .. ويستيقظ على شمسه الذهبية الدافئة ، ونسيته الدموع .. ونسى هو الدموع .. نسى مياه النهر الذى قضى فيه عمرا ..

ثم كان مساء .. باردا .. فاترا .. ثقيلا كتلك السحابة السوداء الداكنة .. الجاثمة فوق ضياء القمر الناحل ، تلعثمت فيه .. وبين شفتيه وعينيه كلمات تاوهها القلب فتناثرت حائرة خائفة معذبة .. « من انا من هذا الحب » .. !؟

وتنامى الى سمعه .. همس حنون .. رائق .. عذب ، يقول : انت .. انت حبى .. انت الاول .. انت ولا سواك .!

واحترقت شفتاه بآهة حارة .. زفرها مكدودا وهو يستمع .. فلم يكن ليكفيه ان يكون «الاول».. ولم يكن ليكفيه ان لا يكون سواه .. ولم يكن ليكفيه ان يكون هو الحب ، لم يكن ليكفيه كل ذلك .. بل كان يريد ان يكون هو الاول .. والثانى .. والثالث .. والالف .. والعشرة آلاف .. !

واستيقظ «من نومه» وهو مازال يهذى ويقول .. الالف .. العشرة آلاف .. ولم يجد شيئا من احلامه تلك ، غير ستارة هلامية من الدموع .. تحجب عنه نور الصباح .. !

الـــيـــك ..!

كان يحبها .. بروحه .. بعينيه .. بذرات نفسه المتناثرة .. بكل زفرة حارة تخرج من بين شفتيه فهى شريكة حياته ولكن حبه لها كان غريبا ـ شاذا !!

كان يحبها وهى بجانبه .. بالقرب منه ولكنه كان حبا زئبقيا .. لا يعمر طويلا كان يفلت من بين يديه كلما مضت ساعة بعد ساعة .. حتى يكرهها وهى تضع يدها فى يديه مودعة الى لقاء آخر ، ولكم ود لوانها اعفته من « تمثيلية » الشوق واللهفة والتى يمثلها عليها وهو يودعها ..

ولكن « كراهيته » هى الاخرى لاتدوم طويلا .. ليعود يحبها مرة ثانية وبعد ساعات لا تزيد عـن عشر ساعات ، وليعانى الشـوق .. واللهفة ..

وظل هكذا يحبها قبل ان يلقاها .. فاذا مالقيها ارتعشت كل عواطفه حبا وحنينا ، فاذا حانت لحظة الوداع كان قد كرهها ، ظل هكذا .. يعيش الحب فى عنفوانه والكراهية فى عنفوانها .. ولم تكن هى لتستطيع ان تكتشف شيئا غير الحب .. فلقد كان صادقا فى حبه والذى تراه دائما .. وكان صادقا فى كراهيته والتى لم ترها ابدا ، وذات يوم ذهبت .. ولم تعد .. مضى يوم وآخر .. وثالث .. ولكنها لم تات للقياه .. ولم تتصل به ، وانتظر .. وطال به الانتظار .. حتى انصرمت من عمره . من عمر حبه وكراهيته خمسة ايام . لقد اذاب البعد كراهيته ولم يبق فى قلبه نحوها سوى الحب .. وفى منتصف الطريق التقيا ليسال كل واحد منهما الى اين ..

الحـــب .. اولا ؟ !

اقتربت منه .. تسمعه .. وتنظره ، وذات ليلة كانا يجلسان .. كان يتحدث .. وكثيرا ، وهى ترقب اصابعه العارية .. وشفتيه .. بصمت المحبين وانتظارهم الوادع ..

تحدث فى ذلك المساء عن اعماله .. كيف نجحت .. وكيف فشلت .. وكيف تغلب على الفشل، ولم يعجبها شىء من ذلك .. واخذت تنتظر .. !

وفى اليوم التالى كان يحدثها عن امواله .. عن ارباحه التى تتكاثر يوما بعد يوم ، ولم يعجبها شىء من ذلك .. فالحب الذى ينام فى قلبها متضرعا ينتظر شيئا آخر .. حديثا آخر ..

وفى اليوم الذى يليه كان يحدثها عن ماضى حياته .. واسرته العريقة .. وامجاد اجداده وآبائه ، ولم يعجبها شىء من ذلك .. فالحب يعتصر قلبها .. والملل يسبح فوق وجهها .. وبدات تقرر شيئا !!

واحس هو بذلك .. احس بالملل .. احس بالسام الذى يطفو على وجهها فظن انها تستعجله .. من اجل ان يتمم زواجه بها ..

فجاء فى الاسبوع الذى يليه فرحا .. سعيدا ، ومعه صندوق مغطى بالمخمل، جاء وهو مؤمن بان الملل الذى لقيه على وجهها ذلك المساء المضنى .. سيذهب .. سيختفى ، حينما ترى صدقه وصدق رغبته فى الزواج ..

ولكنه لم يجدها .. ذهبت .. اختفت .. فلقد قررت شيئا ، وتركت له رسالة تقول سطورها القليلة السائمة « لقد حدثتنى عن اعمالك .. عن امواله .. عن اسرتك .. عن ماضيك ، حدثتنى عن كل شىء ، ونسيت .. نسيت ان تحدثنى عن حبك لى ، وداعا » ...

وخرج .. وهو يردد كئيبا : الحب اولا .. وبعد ذلك كل شىء ، هذه هى الحقيقة !!

الخلود

ما كان يظن انه سيلقى مثلها يوما .. فلقد عاش ايامه الخوالى وهو يبحث عنها .. عن ربيع هادىء مثل هدوئها .. عن بساطة اخاذة مثل بساطتها .. عن قلب يعرف الحب مثل قلبها .. عن ذوق رفيع مثل ذوقهـا !

وجادت الصدفة بلقائه معها .. فراى فيها شيئا آخر غير ذلك الذى كان يبحث عنه .. راى فيها ملاكا حالما .. يقدم الوفاء حنانا .. والاخلاص عطاءا غير محدود .. والتضحية هدايا لا اثمان لها ..

هكذا راى فيها .. وهكذا بدت له !! فعاش معها بالوفاء .. كل الوفاء ، وبالاخلاص .. كل الاخلاص ، وبكل تضحية تمثل فيها اعمق واروع الوان التضحيات ..!!

عاش معها ولها .. وهو يحبها برجولته .. ويحنو عليها «بابوته» .. ويقدم لها الاخلاص مذابا فى كاس من هواه ..

ومضت الايام بهما .. الى ان اقترب يوم سعادتهما المشتركة .. يوم هنائهما المشترك ، حين كان يجلس بجوارها وهو فى قمة سعادته .. سابحا فى ضياء الحب .. وعيناه معلقتان باهدابها السمراء .. ويداه تلمس اطراف اصابعها .. وقدمه يعانق قدمها ، اذ تقدم منهما شـاب جرىء .. اتجه نحوها وهو يستاذنها بالحديث .. ولم تفعل جراة ذلك الشاب به شيئا ، فقد كان حتى تلك اللحظة لا يشك فى شىء .. !

ولكن « فضول » الحب جعله يلاحقها باذنيه ـ وقد تركته لتتحدث الى ذلك الشاب .. ليسمع ماذا كان ذلك الشاب يريد ان يقول لهـا ،

وتناهى الى سمعه على البعد .. صوت ذلك الشاب وهو يهمس اليها ثائرا : ارجو ان تعيدى لى « اسورتى » التى ..

ولم يتمهل لحين سماع بقية حديث الشاب .. ولم يتمهل حتى تعود اليه .. بل قام متثاقلا وهو يومىء لها براسه ، وكانه سيعود اليها بعد دقائق .. وهو يردد فى نفسه : « مجنون من يظن ان المراة تعرف الوفاء » .

واخذت هى تنتظره ، وقد فرغت من الحديث مع ذلك الشاب .. فمرت دقيقة .. وعشر .. وخمس عشرة ونصف ساعة ولكنه لم يعد .. فقامت لتبحث عنه فى ارجاء ذلك المكان .. ولكنها لم تعثر عليه ، فاتجهت الى الهاتف .. وقد تاكد لها الشك الذى داهمه .. وادارت القرص .. حين جاءها صوته حزينا :

ـ الو ...؟

ـ اين ذهبت انت ..؟

ـ عدت الى البيت ..

ـ ولماذا فعلت ذلك ..؟

ـ ما كان هناك داعيا لبقائى بعد الذى سمعته عن « الاسورة » التى اخذتها ... وضحكت .. وتعالت ضحكاتها .. وهو يقول لها : وتضحكين ؟

ـ ولم لا اضحك ...؟

فلقد مررت بهذا التاجر امس وانتقيت اسورة لتشتريها لى انت ، بعد ان تراها اليوم .. وقد تركت لديه ما يساوى ثمنها ..

ـ وماذا بعد ذلك ..؟

ـ وحين رآنا ندلف الى الكازينو الملاصق لمحله التجارى ، اسرع ليستعيدها .. بعد ان وجد افضل منها .

ـ ولكن ..!!

ـ لا شىء .. بل احبك .. انت و « شكوكك » !!

قصر الشك

وكان مساء ثقيلا .. ثقل السحب القاتمة التى تمطت فى الافق .. ثقل الهواء الرطب الذى كان يلامس صفحة وجهه وكان كل شىء « لزجا » فى ذلك المساء .. ثيابه الخفيفة كانت تلتصق بجسده ..

وسيجارته كانت تلتصق بشفتيه .. حتى ذرات الرمال التى كان يمشى فوقها كانت تلتصق بقدميه ، فتزيد من احساسه بثقل ذلك المساء .

وكان الاحساس بالسام يملؤه .. والاحساس بالملل يفوح من كل كلمة كان يقولها فى ذلك المساء ..!

وتاوه بمرارة .. وزفر بحرقة .. بكل الم عرفه ورآه ، ولف المساء آهاته .. واحتوى زفراته .. وانبعث من جوف الليل صوت يسائله : « ما بك » ؟

ولم يحر جوابا فهو يعرف ما به .. يعرفه تمام المعرفة ، انه هو .. « الحب » ولا شىء سواه .. الحب الذى سقاه الحنان ساعات من عمره .. وسقاه الهناء اياما .. وتمطى ـ هو ـ وتثاءب ضاحكا تحت ظلاله السعيدة شهورا ، ثم ... تقاسم العذاب والالم والاكتئاب ليالى الحنان والهناء وظلال السعادة ..

وتاوه مرة اخرى ..! فلقد بنى له الحب « قصرا » .. على انقاض كوخ ، وهو الان بعينين دامعتين .. يرى ان « القصر » يهتز .. وان الرياح تعصف به .. وان الجدار يوشك ان يسقط ، وما جعل القصر يهتز .. وما جعل الرياح تتحرك خارج القصر .. وما جعل الجدار

يوشك ان يسقط ، الا لان « الشك » قد سكن جناحا من القصر ... وان الظنون اقامت فى جناح آخر .. وان الامال الضائعة قد انتحت ركنا قصيا من القصر .

وفكر .. فى هداة ذلك المساء الثقيل ، وطال به التفكير .. وهو يقرر ان يترك قصر الشك والظنون والامال الضائعة .. قصر الحب ، فلم يعد فى مقدوره ان يبيع المزيد من عمره بين جدار ذلك «القصر» !!

وعندما بلغ هذا القدر من التفكير .. كان يتاوه للمرة الثالثة .. وينتحب فلقد كانت آهاته نحيبا ..!!

ورفع عينيه لتصطدم « بالحب » وليرى « دمعة » تسقط على عينى من احب ، وكانت دمعة اكبر من شكوكه .. اكبر من ظنونه .. اكبر من الامال التى ظن انها ضاعت ..

واحس فى تلك الدمعة ، بان شيئا ما .. اخذ يحمله على المزيد من البقاء فى القصر .. « قصر » الحب ..!!

الشـــاب الآخـــر !

وجاء الصباح .. رماديا .. غائما ككل ايام الخـريف .. ورذاذ سبتمبر يبلل كل شيء الا اشواقه ..

وكان هو يقف امام المرآة .. يطيل النظر الى نفسه .. ويهمس بلحن من الحان الحب ، لقد اتسق كل شيء فيه .. بسمته وهي تتلكـا بمرح على شفتيه .. ونظراته وهي تسرح بشرود حبيب .. حتى قميصه « السحاوى » كان يبدو متسقا مع ذلك الصباح الغائم من سبتمبر ..

لقد كان على موعد .. هو كل سعادته .. هو كل آماله .. وعنده تستيقظ الاحلام على احلى « الحقائق » ..

وانطلق بعربة اجرة .. بعد ان تحول الرذاذ الى حبات من المطر ، اخذت تتلاحق خلف بعضها .. فتضعف سير العربة .. وتجعل عجلاتها تنزلق يمينا وشمالا كانها بدون قيادة ..

وطلب منه السائق ان يقف بالعربة ريثما يخف هطول المطر .. ولكنه رفض ، فلا صبر لديه .. وهذه الدقات العنيفة التى تملا صدره تخفق حنينا .. وتهتز حبا ، لا تمكنه من الانتظار .. فقال له السائق .. ان الموت سيلقفهما اذا ما سارا تحت هذا المطر ، فاجابه : فلتمت .. ولكن ليس الآن ، بل حين العودة اذا كان ذلك ضروريا !

ولم يجد السائق مفرا من ان يمضى بالعربة .. وهو ضجر خائف حذر .. اما هو فكان يستحثه .. يستعجله فلقد مضى على « موعده » نصف ساعة ولما يصل بعد .. وكانت السماء ارحم من ان تطـيل عذابه فلم تمطر طويلا ..

وبعد ساعة من موعده .. كانت العربة تقف بجوار بيتها .. وكان هو يتحسس « جيبه » ليطمئن الى ان الهدية التى احضرها لها ما زالت فى مكانها ، وقبل ان يغادر العربة .. رفع عينيه من خلال الزجاج لينظر الى شرفتها ، فلقد عودته ان تنتظره هناك دائما .. ولكنه ارجع نظره وهو يغمض عينيه غير مصدق .

انها هى .. حقيقة .. تقف كالعادة .. تضحك كالعادة وهى تتشح بالايشارب الاحمر كالعادة .. ولكن !! من هذا الذى يقف بجوارها ؟ انه شاب .. شاب دون شك .. وسيم دون شك .. يرتدى بزة عسكرية ..

وكاد ان يصيح الما.. ولكنه كتم صيحته على شفتيه المتقعتين.. لتدوى فى اعماق قلبه ..

وبعد دقائق من الصمت الحزين .. قال لسائق العربة عد بى الى البيت .. بطيئا او سريعا .. ميتا او حيا .. فلا فرق !!

وعاد الى البيت .. يتاوه .. ويقذف بكل شىء كان يرتديه . حتى الهدية التى احضرها لها طوح بها فى الفضاء ، وارتمى على مقعد من المقاعد .. يصرخ بحرقة ويبكى .. يبكى آماله الضائعة .. وحبه المحطم ويبصق على الارض وهو يتذكر « خيانتها » له ووقفتها فى الشرفة تضحك وتلهو مع ذلك الشاب ، لقد راى كل ذلك بعينيه .. انها « خائنة » حقا ! لا تعرف الحب حقا !

ورن جرس التليفون بعد ساعة من عودته ، وجاء صوتها عبر اسلاك التليفون عطوفا .. رقيقا .. حنونا كما تعود ، وكاد ان يضع سماعة التليفون فى مكانها .. فلم يعد قادرا على ان يتحدث اليها بعد «خيانتها» له ، وقبل ان يفعل ذلك .. كانت تقول له لقد انتظرتك ... و «شقيقى» فى الشرفة لمدة ساعتين .. لقد اراد ان يتعرف عليك فى اجازته .. لماذا لم تحضر ؟ .. ولم يجبها .. بل ركب عربة اخرى .. واخذ طريقه اليها.

النصف الثانى

كانت لحظة نكدة .. لحظة تعسة .. تلك التى اكتشف فيها ان ـ نصف عمره ـ قد ضاع ، لقد انقشع ـ الضباب ـ الذى كان يحجب عنه رؤية هذا ـ الضياع ـ .. وذهبت ـ الاوهام ـ التى احاطت به ... بعد ان كان يظن ـ والى ما قبل هذه اللحظة ـ انه يعيش عمره .. طولا وعرضا .. عمقا وارتفاعا ..!

لقد ضاع نصف عمره .. وهذه هى ـ الحقيقة ـ كما يراها الآن ولكن كيف ؟ لماذا لم يكتشف ذلك من وقت بعيد ؟!

واخذ يفكر بنحو آخر غريب .. غير ذلك الذى عهده فى نفسه ، لقد عمل طيلة تلك الاعوام .. واستغرقه العمل .. ولكن ما جدوى العمل ! كافح كل تلك السنين وهده الكفاح .. ولكن ما جدوى الكفاح ! بنى وشيد .. ولكن ما جدوى كل ذلك ! لقد كان ذلك ضبابا واوهاما .. ضبابا سرق العمر .. واوهاما جعلته يظن انه يعيشه .

واخذ يذرع الحديقة جيئة وذهابا ... وينظر الى بيته الكبير من زاوية عينه .. ثم يسرع بنظراته الى ارض الحديقة الخضراء .. يفكر كيف سينقذ ـ النصف الآخر ـ بعد ان تهاوى كل شىء فى ذهنه ؟

ومر به طائران .. انتهيا الى شجرة من اشجار حديقته ، قبعا هناك .. يغردان ويتقافزان .. يتباعدان ويتقاربان .. ويكتبان بخطواتهما كلمة من حرفين .. الـ .. ـ حب ـ ..!

وتذكرها فى تلك اللحظة .. تذكر الفتاة التى احبته واحبها فى فجر صباه ... واستعاد ذكرياتهما القليلة .. وابتسم ، انها هى .. هى

التى ستنقذ النصف الثانى من العمر .. هى التى ستجعل للاشياء طعما ولونا هى التى سيغرد معها كما غرد الطائران .. هى التى ستملا البيت والحديقة .. هى .. هى .. وكتب اليها رسالة يدعوها للعيش معه بالحاف . وللحياة بجواره .. فحبه لها لم يمت بعد .. رغم كل السنين التى ذهبت ..! وحينما اقفل الرسالة .. كان يضحك .. ويضحك .. لقد اشرق فى نفسه الامل .. واشرقت فى قلبه فرحة لا يمازجها خوف او قلـق ..!

وبعد اسبوعين .. جاءت رسالتها ... وفضها وهو مطمئن .. دون ان ترتعش يداه واخذ يقرا السطور الاولى سعيدا .. سعيدا .. وكانت آخر سطور الرسالة هى ـ الشفرة ـ التى مزقته ، لقد كانت تقول : ـ احمد يقبل يديك ـ !

وحاول ان يعرف من هذا الـ ـ احمد ـ الذى يقبل يديه ، وهو يفتش فى ظرف الرسالة عله يجد شيئا يدله .... ووجدها .. صورته صورة احمد !.. انه ـ طفل ـ .. طفل فى الرابعة من عمره .. هو ابنها ؟

وانتحب وهو يقول .. لقد ضاع .. ضاع النصف الثانى من العمر !!

انـــت عمـــــرى ...

كان زوجها .. وكانت تحبه .. تحب ظلاله .. ضحكاته واناته .. دموعه وبسماته .... آماله الصغيرة والكبيرة .. غضبه ورضاه . حزنه وسعادته .

ولكم قبلت ملابسه ومناديله ولكم وقفت امام صوره التى تملا حجرات المنزل بعد ان يخرج الى عمله .. تداعبها .. وتتحدث معها .

وكان وفاؤه اكبر من حنانه لها .. وكان حنانه اكبر من حبه لها .. وكانت هى «زوجته» اكبر من كل هذا .. فى عينيه .. وبين قلبه .. وعند ملتقى آماله .

وفى صباح يوم من الايام .. ذهب الى عمله .. كما هى عادته ليبحث لها عن مزيد من السعادة ، مزيد من العيش الهانىء .. ولكنه عاد بعد ساعات قليلة .. محمولا على الاعناق .. على اكتاف الرجال .

وصرخت .. وصرخ حبها معها .. ما هذا ؟ ماذا حدث ..؟ ولم تلق منهم جوابا غير « الدائم الله » فاخذت تبكى وتنتحب .. وتشد شعرها المصفف .. وتصيح بهوس وهى تقفز نحو النافذة لتلقى بنفسها منها !

وبكت كل القلوب من حولها .. وبكت كل العيون لبكائها .. واشفقت عليها كل النفوس من حولها .. تحيى .. « وفاءها » تحيى « اخلاصها » ..! تحيى « حبها » !

وبعد ثلاثين يوما .. ثلاثين يوما فقط من موته .. من فراقه كانت تقف فى نافذة بيتها .. تطل منها .. ويتعلق بصرها بالنافذة المقابلة ، ومن خلفها جهاز التسجيل الذى احضره « المرحوم » يدور هامسا « انت عمرى » !!

الـــزوج الفيلســـوف

كان مساء .. رطبا ككل امسيات الصيف ، نسماته القليلة الدافئة تتحرك ببطء .. فتلتقى بوجهه المتجمد التقاطيع ، وهو يجلس على مقعد من المقاعد فى شرفة بيته .. يهز قدميه .. ويحتسى فنجانا « باردا » من القهوة كما هى عادته دائما .. ويشد انفاسا متتابعة من سيجارته ... ويحملق فى كتاب « بعيد » عنه ودلو انه تحرك وتناوله .. ولكنه بعيد .. بعيد جدا ، فوق المقعد المجاور لمقعده !!

ويكتفى بالنظر اليه ... ثم ينصرف عنه ليفتح جهاز الراديو الملاصق له ، فتنبعث منه اصوات موسيقية حادة .. صاخبة .. لا يسمعها ولا يدرى عنها شيئا .. بل يظل يهز قدميه .. وهو مستغرق ...

وتدخل عليه زوجته ... تجلس امامه ، فلا يراها رغم انه ينظر فى تجاهها ... وتمر دقيقة واخرى ، لتمتد يدها فتقفل جهاز الراديو .. ولكن شيئا لا يتغير ، فتمسك قدميه ـ بعصبية بالغة ـ حتى يكف عن تحريكهما ، وهى تصيح فيه : ـ يا الهى .. لقد تحولت الى نصف ميت بعد اشتغالك بالفلسفة !

ويرى فى تلك اللحظة زوجته ، فيحاول ان يجيبها او ان يقول لها شيئا .. ولكنها لا تمهله ، بل تواصل حديثها : ـ

ـ حسنا .. ليس امرا سيئا ان اعيش مع نصف ميت .. فساحاول ان ابقى على النصف الحى .

ثم تكف دفعة واحدة عن الكلام وهى تبتسم له فيبتسم لها مجاملا كى يعود الى سرحانه ، ولكنها تلاحقه قائلة وهى تتكلف المرح :

ـ لا تنسى غدا اشياءك .. فسنذهب الى البحر .

– واى شىء تخافين ان انساه ؟!

– الاشيـاء التى تعودت ان تنساها دائما ثم تحيـل ساعاتنـا السعيدة .. الى اخرى نكدة ..

– مثـلا ؟.

– علبة السجائر ... «الولاعة» ... الاسطوانة المتآكلة التى تحب ان تسمعها .. وهذا الكتاب الذى ساقدمه للمدفاة فى الشتاء القادم ... و ..

وجاء الصباح .. واستيقظ الزوج الفيلسوف مبكرا ، وفى ذهنه كل تلك الاشياء التى طلبت منه زوجته ان لا ينساها ..

لقد احضر كل شىء .. لم ينس شيئا .. فهو لا يريد ان يغضب زوجته !!

وعند الشاطىء .. ترك قدميه لمياه البحر .. واخذ يتامل الموج مطمئنا الى انه لم ينس شيئا ..

وبعد ساعة ... اكتشف انـه نسى شيئا ما !.. لقـد نسـى « زوجته » فاخذ يضحك طويلا .. ويقهقه كما لم يفعل من قبل ، لانه لم ينس شيئا – كما اوصته زوجته – يحيل الساعات السعيدة الـى اخرى نكدة !!

همس اوراق الصفصاف

وكان مساء من امسيات سبتمبر .. مضت ساعاته الاولى .. وهما يجلسان .. يتامل كل منهما الآخر .. وكانه لم يره من قبل ، وكان الحديث هامسا .. همس اشجار الصفصاف ناعما نعومة البحيرات ..

ثم .. جن همس اشجار الصفصاف .. واضطرب ماء البحيرة الناعمة ... وعصفت بالقلبين رياح « شك » باردة مزلزلة ، ليعقب ذلك صمت ... صمت طويل ..

صمت طويل ممل ملا المكان .. ارتفع فيه شراع الالم .. واخذت زوارق الياس تسبح فى دماء قلب من « القلبين » ..

واطرق صاحبه .. واخذت الصور تمر بذهنه صورة بعد صورة وزوارق الياس تسبح فى دماء قلبه : لكم تغنى بحبه .. لكم اطفا ظماه نعيمه ولكم الهب حواسه عناءه .. لكم تغنى « بغلاوته » ولكم بكى شقوته .. ولكنه هذه اللحظة .. وشراع الالم يرتفع فى نفسه وزوارق الياس تصبح فى دماء قلبه ، يضيق بكل شىء .. بكل شىء .. حتى « حبه » ووجد نفسه يفكر فى ان يهرب من هذا الحب ورياح الشك الباردة التى تزلزله .. وان يمضى بعيدا .. بعيدا .. لا يرى .. ولا يسمع .. مقدما نفسه الى افاعى الذكريات كى تقتات على بقاياه ..

وقطع الصمت .. بصوت مسموع .. مرتاحا وكانه يتوسد «الورقة الاخيرة » .. ورقة المضى بعيدا .. بعيدا ، وصحا القلب « الآخر »

صحا على الصوت المسموع .. وحفيف الورقة الاخيرة وهى تصطدم بجدار وارض الغرفة ، صحا القلب الآخر .. لتمحو صحوته كل قرار ولتمزق صحوته كل اوراق الشك .. حتى « الورقة الاخيرة » تمزقت حين كانت هذه « الكلمة » : ساكون معك ..!!

وامتزجت « الكلمة » بنسمات السحر .. ليعود الحديث هامسا همس اشجار الصفصاف ... ناعما نعومة البحيرات .. وهكذا ليالى الحب !!

بيـن الغيـــرة والحـب
قلب لا تحركه الغيرة

لم يترك لها زوجها شيئا ... حين انقطعت به رحلة العمر ... وتوقفت سفينة حياته عن المسير ، لم يترك لها سوى بيتا لم تكن لتملك منه شيئا سوى اثاثه الفخم والقديم والمهترىء فى اكثر من جزء من اجـزائـه ..

وبدات تعيش حياتها وحيدة الا من ذكريات ستين عاما هى عمرها .. وخادمة ودود طيبة ، لا تاخذ اجرا بل تقاسمها الوجبات الثلاث .. حين كانت ثلاثا ...!!

وكان هو ومنذ ان مات زوجها يتردد عليها بين الحين والآخر .. وقد اتخذ منها اما له .. واتخذت منه ابنا لها .. فلم تكن له اما .. بل كان يعيش الحياة وحيدا مثلها .. لقد كان يساعدها بماله .. الى ان جاء اليوم الذى احس فيه ان مساعداته لها ، لم تعد لتسد حاجتها والخادمة الودود ، فاقترح عليها ان تؤجر غرفتين من منزلها ... لمن اراد ان يستاجر ، فاقتنعت بالفكرة التى كانت تراودها طيلة الايـام التى مضت .. ولكنها كانت تحجم عنها حرصا على مشاعره ، الى ان استحثها بنفسه .. ففعلت ذلك ..

وفى يوم من الايام .. وبعد ان اخبرت حارس العمارة برغبتها فى ذلك ، طرقت بابها فتاة فى الواحدة والعشرين من عمرها .. سمـراء ذات عينين واسعتين .... هادئتين كالبحيرات .. تتظللان باهـداب سمراء طويلة ..

ولم يمض وقت طويل .. بعد ان احتلت غرفة من غرف المنزل .. حتى اصبحت واحدة « من البيت » كما يقولون .. تقاسم السيدة والخادمة .. كل حياتهما .. وكل آمالهما .. وكل آلامهما ..

وفي ذلك اليوم الذى استقرت فيه .. كان هو يدق الباب كعادته بعد ظهر كل يوم ، فقفزت هى لتفتح الباب .. ولشد دهشتها حين رات شابا يقتحم البيت دون ان يسال احدا .. ودون أن يسمح له احد بالدخول وسالته والدهشة تملاها وهى تحاول ان توقفه : ـ من انت ..؟

وضحك وهو يقول : انا .. صاحب البيت ..!

ـ ولكننى لا اعرف ان للبيت صاحبا .. سوى « السيدة » ..

ـ اذا .. فانا ابن السيدة .. صاحبة البيت ..

ـ ولكنها لم تخبرنى بان لها ابنا .

ـ اذا افترضى ما شئت ..

ـ ولكن كيف افترض .. و .. و .. وقطع عليهما هذا الحديث ترحيب السيدة صاحبة البيت ، التى عرفتهما ببعض .. ليدلفوا جميعا الى قاعة الجلوس .. وهم يضحكون .

ومنذ ذلك اليوم .. اخذت الفتاة تتعلق به .. بصمته حين يصمت وبكلماته حين يتكلم .. وبمرحه حين يمرح ، ولكنه لم يفعل شيئا كثيرا تجاه ذلك .. وكل الذى فعله هو انه احبها بنصف قلبه او اقل وما كان ذلك ليرضيها ويرضى تعلقها الكبير به ..

وهكذا مضت الايام .. وهى تود لو انها استحوذت على كل قلبه ففعلت كل شيء تصريحا وتلميحا .. ولكنه ظل كما هو ، الى ان جاء الى البيت رجل آخر فى الاربعين من عمره .. جاء يبحث له عن غرفة ، ولكن صاحبة البيت رفضت ذلك .. فاخذ الرجل يتردد ليس من اجل بيتها فقط بل ومن اجل من فى البيت .. وفى كل يوم كان يزداد فى

تودده منها ومن الفتاة التى لم تكن لترفض وده ، بل وحملت سيدة البيت على « الموافقة » .. على منحه الغرفة ..

وحين حدث ذلك .. اخذت الفتاة تبدى بعضا من عواطفها نحوه .. وكان الشاب يرى ذلك .. ولكنه لم يعره شيئا من اهتمامه ، الى ان كان يوما حين جمعتهم غرفة الاستقبال .. فطلب « الرجل » ان تعد الفتاة شاى المساء لهم وكانت تلك فرصتها كما كانت تظن .. فاجابت الرجل وهى تقف : اذا لم افعل ذلك .. فلاجل من اذن ؟..

وصمت الشاب .. وهو يراها تهتم بوضع الشاى امامه .. الى ان فرغوا من تناول الشاى، حين وقف مستاذنا فى الانصراف كعادته.. وذهب .. ولم يعد بعد ذلك اليوم .. لم يعد الى ذلك البيت مرة ثانية ..

لم تكن تفطن انه سيفعل ذلك .. لانها لم تكن لتدرى انه صاحب قلب لا تحركه « الغيرة » .. بل يحركه المزيد من « الحب » ..

الحـــب اولا ...

كنت احسب ان جراحى قريبة من يدى .. كنت احسب ان بلاسم الشفاء ليست ببعيدة عنى .. وكنت احسب ان الدموع ستجف يوما ، وغربت الظنون .. غربت فى ليل حالك السواد .. فجراحى لم تكن قريبة من يدى .. وبلاسم الشفاء لم تعد قريبة منى .. والدموع لما تجف ، فالظلام قد لف كل شىء ..!

وبين طيات الظلام الكثيف كنت ابحث عنها .. عن جراحى ، التى داهمها الليل قبل ان اتحسسها ، وعثرت عليها .. وهى تنزف الدماء .. دماء عزيزة غالية .. هى بعض من الشباب .. هى بعض من الامل ، بل هى الامل ان كانت هناك آمال .. هى الشباب ان كان هناك بعض من الشباب ..

وامتدت يدى فى الليل وبين ظلمته .. تريد ان تضمد الجراح تريد ان تمحو بعضا من الالم ، وقصرت يدى .. رايتها بعيدة .. رايت جراحى بعيدة عن يدى ، ورايت ان الوصول يلفه سياج من المستحيل لتبقى الجراح دون ضماد .. ولتبق الجراح دون بلاسم .. لتبق الجراح .. جراحا لا تصل اليها يد انسان ، تنزف وتدمى .. ويتقرح بعض منها .. ويطنطن حولها الذباب ، لا يفعل الانسان شيئا تجاهه غير كلمة « هش » !! ويبقى الالم من بعد كل هذا ويتدفق كالنهر .. كالينابيع التى لا تجف .. كالماء العذب الزلال ..

وكلمة واحدة .. اعيشها واقولها .. لا شىء يعدل الالم .. لاشىء فهو اكبر من الحب ... امتع من العذاب !!

كيف باعت حبى ؟

كان ذلك اليوم .. هو اليوم الذى اعتاد فيه ان يذهب الى خطيبته، بعد ستة ايام من العمل المتواصل والاحلام الساهرة فى قلبه ...

وقبل ان يذهب الى عمله فى ذلك اليوم .. مضى الى صندوق البريد كما هى عادته كل صباح ، ففتحه .. واخذ يقرا : « لقد غرر بك يا صديقى .. وخدعت وانت لا تعلم .. فلا تعجب كثيرا اذا ما قلت لك ان اليوم هو يوم عقد قران فتاتك ..»

وظل يبحلق فى السطور .. وهو لا يدرى ماذا يفعل .. والى اين يذهب ، ولكنه وبعد ساعات من تلك اللحظة التى عصفت بكل آماله واحلامه .. وجد نفسه يمتطى اول عربة قطار متجهة الى المدينة التى تقيم بها فتاته .. والتى لا تبعد كثيرا عن مقر عمله ..

ولم ينتظر عربة القطار حتى تقف تماما .. بل قفز منها ليتابع السير على قدميه ، وهو يتجه الى بيتها .. ليعرف الحقيقة .. حقيقة « غدرها » فذلك هو كل ما انتهى اليه تفكيره ، وحين اقترب من البيت وجد عددا من الاطفال يرتدون ملابس ملونة زاهية ... اكدت له ان هناك شيئا ما وراء هذه الملابس الملونة الزاهية ..

فاخذ يركض فى « السلالم » كالمجنون وهو يردد فى نفسه « كيف حدث هذا .. كيف باعت حبى فى ستة ايام » ...

ودق جرس الباب .. ففتحت له الخادمة التى كانت فى احسن مظهرها .. ولم يقل لها شيئا مما تعود .. بل سالها بعصبية : « اين هى ؟.. »

واجابته وهى تتطلع اليه ... « لقد خرجت ..! » !!

واقفل عائدا ... وهو لا يدرى الى اين تحمله قدماه .. الى ان وجد نفسه يقف امامها فجاة فى عرض الطريق ، واراد ان يبتعد عنها .. اراد ان يدير لها ظهره .. ولكن قدميه لم تطاوعاه .. بل اقترب منها وهو يقول بصعوبة بالغة : « مبروك .. » .

وعجبت منه ..!!

اين فرحته التى تعودتها ... اين البهجة التى تطفح على وجهه فى مثل هذا اليوم الذى تعودا ان يلتقيا فيه ، فسالته باستغراب : « على .. ماذا ؟ » ..!

واخرج الرسالة من جيبه .. وقدمها اليها .. وهو لا ينطق بحرف واحد ، واخذت هى تقرا الرسالة .. ولكنها لم تنفعل بسطورها ... ولم تتاثر ... بل وضعتها فى حقيبتها التى اخرجت منها رسالة اخرى كانت ذاهبة بها الى مركز البريد .. تقول فيها : « ساعيش عمرى لك ... وبـك .. » .

وتراجع وهو يسالها : ـ اذن .. ما مظاهر الفرح التى رايتها فى بيتكم ؟! انه احتفال « بتسمية » ابن اختى .. اجلناه ليوم حضورك ..

وتاه مطرقا وهو لا يدرى ماذا يفعل .. او ماذا يقول .. وفتـح فمه لتسبقه وهى تضحك : « نعيش سوا وناكل غيرها » .

وضحكا .. وهما فى الطريق الى البيت .. بيتها !!

الطـــائـــر الاليـــف

على جمر من الالم كان يتلظى .. وهو يجلس بجوارها فى العربة كمعظم الامسيات ، يتاوه بين لحظة واخرى .. وكل ما بداخله يحترق يذوب ، ويفتح ازرار قميصه ليعرى صدره لليل ونسماته .. ثم لا يجد بدا بعد ان مل الصمت .. لا يجد بدا من ان يتحدث اليها بصوت باك جمع اشجان الامس واللحظة .

كفاك اليوم .. وكفاك غدا .. كفاك .. وابحثى عن اشياء تقتات بها عواطفى .. ابحثى عن كلمة تخفف لوعتى .. ابحثى عن همسة تبلل اشتياقى .. لاتقولى انتظر ، فلقد انتحرت املا وانت تعرفين ! انت تعرفين ان الطيور لا تنتظر كثيرا على الارض ؟!

واجتر ضحكة من فمه .. مرة واخرى .. وهو يقطع المكان .. وافكار تتزاحم فى راسه ، تريد ان تخرج جميعها فى « جملة » .. فى كلمة واحدة .. ولكن خطوات عربته التى اخذت تثقل فوق المكان ابتلعت كل تلك الافكار ... ابتلعت كلمات تلك الجملة .. مزقت حروف الكلمة التى احتزت على شفتيه .. وهمس كئيبا بعد ان بهره غرورها واعتدادها: ربمـا .. !!

ومضت الايـــام ..

وكان عليه ان يختار .. بين ان يضع كبرياء قلبه الذى مل الانتظار وبين ان يضع قلبه ـ هو ـ تحت قدميه .. فيسحق الكلمة ـ الامل ـ التى حلم بها تخرج من شفتيها فى يوم من الايام .. ويحول يقينها الى حلم من احلام المساء .. ويحيل تلذذها بعذابه الى حسرة .. الى ندم .. الى الم صاعق لم تكن لتفكر فيه يوما ..

وصمم ان يفعل شيئا .. صمم على ان يحرر قلبه .. ان يطلق نفسه .. حتى ولو هام على وجهه فى الارض بقية عمره .. كل عمره ، ولكن .. كان حبه لها اكبر من غرورها .. وكان تعلقه بها اكبر من اعتدادها .. وكان امله فيها اكبر من مرارة الحقيقة التى احسها ، ودفعه الحب والتعلق والامل الى ان يقتات الصمت .. ويتجرع الهوان .. ويتوسد الحرمان طيلة عامين ..

★ ★ ★

وافاق ذات صباح .. دامع القلب والعينين والنفس .. كل ما فيه يبكى وينوح .. وكل جارحة فيه تئن وهى « تستودع حبا » كانت التضحية فى سبيله اكبر من عمره .. اكبر منه ..!!

وغاب عن حياتها .. اياما .. واسابيع . حتى بلغت الشهرين ، وفى كل يوم من تلك الايام .. كانت تؤكد لنفسها بانه سيعود .. ولكنها لم تفعل شيئا غير ان تنتظر .. لم تفعل شيئا بعد ان « صورت » شيئا بعد ان « صورت » لها نفسها بان الحب لا يحترق تحت وهج الغرور والكبرياء والاعتداد ..

وارتطمت « بالحقيقة » .. بعد طول غيابه .. ارتطمت بها وهى تسبح فى تصوراتها وظنونها :

فلقد اختفى الطائر الاليف .. وصفق بجناحيه .. واحتواه الفضاء .. البعد .. ودرب مجهول ، واخذت تحملق فى « السماء » !!

رجـــل بـــلا صـــورة

كان عاجزا عن ان يحرك يديه .. او ان يرفع راسه المثقل من فوق المخدتين البائستين اللتين استضافتاه تلك الساعات ، فلقد طال به السهر ليلة امس .. وطال به الليل بعد ان عاد الى بيته .. وهو لا يفعل شيئا غير ان يراقب نفسه ... ويستمع دقات قلبه ... ويرسم لنفسه صورا متعددة .. احب بعضها .. وكره البعض الآخر .

واخذ يستعيد براسه المثقل بعد ان استيقظ من نومه .. تلك الصور التى رسمها لنفسه طول الليل .. صورة اثر اخرى ، وعند بعض منها كان يتوقف مليا .. ليمعن النظر فيها .. ويطيل ..

لقد استعاد صورته ايام ان كان يعمل ويعرق .. والاحساس الابيض يغمره بانه ياتى شيئا مجديا .. شيئا لا زبد فيه ، وحين كان يشعل سيجارته وهو يجفف عرقه .. كان يحس بانه يملك الدنيا كلها .. او بعضا منها على اسوا الظروف .. ثم .. صورته وهو يقفز فى الهواء ليصطاد سحابة من سحابات الافق .. فلما فعل ذلك امطرت بين يديه ، فلقد كانت يداه كالرياح الباردة .. كالصقيع ..! ثم وقف طويلا وهو يستعيد صورة « المـراة » !!

فلقد كان ينظر الى تلك « المرآة » بين الحين والآخر .. وكان يرى نفسه فى تلك المرآة وتضاعيفها احيانا .. وكانت تختفى صورته من فوق ظهرها المتلامع حينا لتظهر صورة غير صورته ، صورة احبها

ويحبها ، ولكنه نادرا ما كان ليعدم فوق تلك المرآة صورة على الاطلاق وتحسس جبينه بعد كل هذه الصور التى استعادها .. وفرك عينيه وهو يتثاءب بصوت مسموع .. ثم اخذ يجر قدميه الى غرفة الحمام ، وكان اول شيء فعله هو ان نظر الى المرآة .. فلم يجد صورته تنعكس فوق ظهرها .. فحاول ان يبصرها مرة ثانية ، ولكن « المراة » لم تعكس له شيئا مما تعود .. فاطبق شفتيه وتمتم فى نفسه وهو يجر الفرشاة فوق اسنانه : يبدو اننى رجل « بلا صورة » .. ثم مط شفتيه وهو يقول لنفسه : ربما انى رجل بشيء آخر ... ربما !!

زجـــاجـــة عبيـــــر

كلما احس بالكرب .. بخداع البشر .. بانانيتهم .. بالحب الذى يهضمونه اليوم .. ثم يتقياونه غدا .. غدرا ونكرانا ، تلوح له تلك السيدة كالطيف .. كالحلم .. بلونها الشاحب الاصفر .. بعينيها المتورمتين .. بملابسها الداكنة .. بالهالة السوداء التى تحيط عينيها بصوتها الباكى .. وبايمانها العميق بالله ..!!

تلوح له بكل ملامحها الحزينة .. فتعطر ايامه بعبير حلو رطيب .. عبير يندر وجوده بين طيات عالمنا الذى فقد قلبه وروحه وعاش بعقله وساعديه ، عبير يهبه شيئا من «العزاء» ...!! بعضا من الراحة ....!!

لقد عاشت تلك السيدة ايامها التى مضت ولياليها بقلب «واحد» .. وبوجه « واحد » .. لم يكن لها اكثر من قلب واحد .. ولم يكن لها اكثر من وجه واحد ، وكان رجل ذلك القلب هو زوجها .. الذى احبته بروحها .. ووجدانها .. وبكل نبضة من نبضات قلبها ، فاعطته صباها وفجر الشباب وضحاه .. وهى ترعاه بحبها وحنانها .. وتسقيه كاسا صافية من اخلاصها .

وكان هو ـ رجل قلبها ـ نضرا .. نضارة الربيع .. مشرقا كالصباح .. رائقا عذبا كالليل ، احبها بتفان .. واخلص لها .. لا كاخلاص الآخرين وعاشا ينعمان فى ظل الحب .. بالسعادة .. بالهناء يغردان لحنا واحدا .. ويحلمان بالمستقبل وايامه ولياليه ..

ومضت بهما ايام .. هى فى حساب الزمن والسنين لحظات لم يبلغ مداها اكثر من ثمانية اعوام ، وهى فى حساب عمريهما .. العمر كله ..

وزحف القدر نحوها .. ليختطف منها زوجها .. زوجها المشرق النضر الرائع العذب .. وهو فى عنفوان رجولته وحيويته ، وشهقت .. وبكت .. ولكنه مات ..

مات كما يموت البشر .. سقط وهو يغرد .. ثم ارتحل وترك « الاوتار » وحيدة بدون « قوس » .

واعتزلت الحياة .. ودنيا الناس .. وقطعت كل الخيوط التى تربطها بالناس وتشدها الى الحياة ، لتعيش تبكى الرجل الذى اعطته صباها وفجر الشباب .. ولتقدم ايامها ولياليها قربانا لحبه ..

لم يخطر ببالها ان تفكر فى رجل آخر .. فهى لا تملك اكثر من قلب واحد ،، هو ذلك الذى اعطته لزوجها ، وهى لا تملك اكثر من وجه واحد لتنظر به الى رجل آخر غير زوجها .. او لتنظر به الى حياة اخرى غير تلك التى عاشتها معه .

وطالت بها ليالى الدموع .. دموع الوفاء التى كانت تذرفها وهى لاتدرى انها تذرف عمرها وتحرق بقية ايامها ، فلم يكن ليهمها عمرها .. ولم تكن لتهمها تلك الايام ..

واجتمع حولها الاهل والمخلصون .. ينهونها .. يذكرونها بشبابها .. بحياتها وبالعذاب الذى فرضته على نفسها .. وهى ؟ لا تدرى من امرهم شيئا .. ولا تود .. وكم ضاقت بهم وبنصحهم .

ومن بين احزانها ودموعها رفعت راسها الى السماء وكان شيئا يناديها .. يدعوها لتسكب حبها ووفاءها صلاة وصياما .

وتحولت الزوجة المحبة الوفية ـ بعد ان زهدت الحياة ـ الى ناسكة متعبدة .. لتصلى اناء الليل واطراف النهار .. تصوم الشهور تلو الشهور .. وهى تدعو له بالمغفرة .. وتستمطر عليه الرحمة . وتحلم برؤيته ـ فى المنام ـ راضيا مبتهجا ـ ..

وعلى الارض التى كانا سيقيمان عليها بيتهما الجديد .. على تلك الارض التى كانت ستشهد سعيدين ، اقامت مسجدا .. ولم تقم بيتا لا ساكن له ..

وقبعت بجانب المسجد .. تصلى مع المصلين .. تطلب لزوجها المغفرة .. وتنشد له الراحة والهناء فى الحياة الآخرة .. حتى تلحق به !!؟

وبعد ...

لقد كان ـ وما زال ـ يحس شيئا من السعادة .. حينما يلوح له طيف تلك السيدة .. التى صنعت للوفاء عبيرا .. فعطرت ايامه وايام من عرفوها بهذا العبير ..

★ ★ ★

وصمت .. واخذ ينظر الى .. يحدق فى .. وشىء من السعادة .. وشىء من « الامل » فى الحياة .. يتسرب الى نفس يملؤها ، وان كانت قصة وفائها .. تشبه زجاجة « عبير » .. فى « دكان » عطارة ..!!

الاحـذيـة الصغيـــرة

كان كل شيء يضطرب فى ذهنى .. ويهتز .. وانا اجر قدماى فوق الارض ، واطلق زفرات حارة .. وابعثر دخان سيجارتى فارى من خلال سحاباته ان السعادة وهم .. والحب عجز ... والامل خداع .. والاحلام ياس .. والدموع ضحكات لا طعم لها ..

هكذا كنت ارى ..

وكان كل ما يشغل ذهنى المضطرب فى تلك اللحظات .. هو البحث عن مكان .. عن « مرفا » الجا اليه ، مرفا تلتئم عنده نفسى المضطربة هذه ، واخذت افكر ..!!! افكر فى اكثر من شخص .. وفى اكثر من مكان .. ولكن !.. ولكن البيوت كل البيوت يملاها الاطفال .... بضجيجهم .. بصياحهم .. بعويلهم وشعرت بالياس فى ان اجد مكانا واحدا الجا اليه .. وبدا لى العالم فى هذه اللحظة اسوا ما يكون .. اسوا مما سمعت وقرات وخبرت . وعندها .. كنت اطرق بابها ، لاجدها تجلس عند مدخل بيتها .. تقتعد ركنا من اركانه .. وحولها مجموعة من الاحذية الصغيرة ..

ومن ركنى الذى اخترته .. اخذت ارقبها وهى لاهية عنى بالاحذية الصغيرة .. والتى اخذت تعمل فى مسحها وتلميعها بصبر واناة ، والاطفال من حولها .. يمرحون .. ويعبثون ببراءة ، وبين كل دقيقة

واخرى كانت ترفع بصرها لتنظرهم .. فارى فى بريق عينيها ان السعادة حقيقة .. وان الحب قدرة .. والامل عزاء .. والاحلام عزيمة ..

وتمضى الدقائق .. وانا اتابع ، بريق الحنان وهو يسترسل من عينيها .. وهى تبعد حذاءا وتقرب آخر ، لتمسحه .. وتصقله .. وكانه لا عمل لديها امتع من مسح احذية الصغار !!

وانتزعت قدماى من الارض متحفظا .. ثم ودعتها ، ودعت الام ماسحة الاحذية .. وانا اعدو كمن وجد « شيئا » ، ولكننى عدت اليها ثانية .. وانا انظر اليها متمنيا لو انى مددت يدى لامسح معها حذاءا من الاحذية .. !!

الـــزورقـــان

كان الليل .. والظلام ، وماء البحر يضم الزورق وهو يمضى بهما يهمسان يتناجيان .. يغنيان للحب اعذب الالحان .. يغنيان للامل .. للغد .. للشمس التى ستشرق عليهما بعد حين ..

وارتج الزورق بعد حين .. اهتزت الاحلام .. وارتجف العصفوران فالرياح اخذت تعبث بالزورق .. والاعاصير اخذت تهدد سيره الحنون وامسكا بالزورق المضطرب ، ولكن الليل والظلام والاعاصير عصفت بالزورق .. حطمته ، ودفعت بكل منهما بعيدا .. بعيدا يصيح فتلتف الرياح صوته فى طياتها .. ويستنجد فلا تغيثه غير موجة هائجة تدفع به الى الاعماق .. وتطوح به الى السطح .

وحملت الرياح الزورق المحطم الى سبيله .. وافترق العصفوران دون وداع ليبكى كل منهما حياته وحياة الآخر وهو يصارع الموج والاعاصير والرياح .

ومع اشراقة الصبـاح ..

نامت الاعاصير واستقلت الرياح عند الافق .. ولفظ الموج احدهما ليستلقى على الشاطىء مبللا .. منهكا .. يبكى .. وينتظر روحه ان تجف ..! لقد تراءت له وهو فى غيبوبته انه فقد نصفه الآخر ، فقده

والى الابد ، ومضى النهار وعاد الليل والظلام ليفقد كل امل .. وليلفظ كل امنية .. وليتاوه كل حلم زفرة حارة من صدره .

وصحت الرياح من جديد ، واستيقظت الاعاصير من جديد .. وتدافع الموج من جديد .. فقذف بالنصف الآخر بجانبه .

ويا للسماء .. ان الاعاصير التى حطمت الزورق هى نفسها التى دفعت بنصفه الآخر الى جواره ، والرياح التى فرقت بينهما عادت فجمعتها .. والموج الذى طوح بهما عاد فلفظهما بجوار بعضها . هى الحياة .. والذين يحبون لا يموتون ، فالرياح التى تقتلع الاشجار .. هى التى تنثر البذور لاشجار اخرى جديدة ..

ايـــن الاحـــــزان ؟

وعند الصباح .. وبعد ليلة عرفت فيها الزوجة الصغيرة كل نجيمات السماء .. وسحابات الافق ، كانت تنظر فى المرآة .. لترى هالة من السواد تفترش حافة البحيرة .. وحمرة تصبغ افقها .. افق عينيها الجميلتين ..

لقد صنع كل ذلك بكاؤها ... دموعها التى ذرفتها وهى تبكى رجلها زوجها الذى احبها واحبته ، والذى اخذوه من بين ذراعيها فى لحظة .. ليدعوه السجن !!

لقد اودعوا زوجها السجن .. تركوه خلف القضبان والظلام .. يعانق الاوهام .. ويتوسد خيال زوجته .. ويكتب لها رسائل لا تنتهى سطورها الا عند الصباح ، لقد اودعوه وهو يتعجل الثراء والشهرة من اجلها .. من اجل زوجته لتعيش عمرها فى كنف الشهرة والثـراء ، وقاده استعجاله قاده حبه لها الى طريق غير مشروعة ... فزلت قدماه .. ليتردى فى ظلام السجن من اجلها ومن اجل طموحها ..!!

ومضت بها الليالى .. باكية حزينة .. دامعة ... تطفح بالاسى .. وتملاها الذكريات ولواعج الحنين ..

وبكاها كل من عرفها .. بكى وحدتها ... بكى احزانها الصادقة .. بكى الحياة التى اختارتها لنفسها من بعده ، وهى لا ترى شيئا غيـر صوره .. ورسائله .

وفى ليلة من الليالى .. سمعت جارتها صوت ضحكات تملا البيت بيت الزوجة الصغيرة الحزينة .. وهتفت الجارة فى الليل تحدث نفسها « اذن لقد عاد زوجها .. عاد ويا لسعادتهما » !!

وفى ضحى اليوم التالى .. كانت الزوجة تطرق باب جارتها . وهى تلبس رداء رماديا ، هادئا هدوء ذلك الصباح .. شائقا كالامل ، وفتحت الباب جارتها .. لترى ان كل شىء يوحى بعودة الزوج الغائب، نظراتها الهادئة الناعمة.. رداؤها الشائق.. خصلات شعرها المنسقة ، ورحبت بها جارتها قائلة : « اننى اشكر لك تلطفك بزيارتى فى مثل هذا اليوم ، لتسعدينى بنبا عودة زوجك » ..!!

وبكلمات غير تلك التى لم تتعود سماعها منها .. كانت الزوجة تقول :

« لا ... انه لم يعد ، بل جئت الى بيتك لاجمع صحبة من زهور الياسمين لاصنع منها عقدا لنفسى ..!!

وانعقد لسان جارتها .. لم تستطع ان تقول كلمة واحدة ، بل اخذت تنظر الى الزوجة وهى تقفز فى الحديقة تجمع زهور الياسمين واصداء ضحكات الليل .. ترن فى اعماق جارتها ومعنى واحد تطفح به نفس الجارة « اين الاحزان » .. « اين الدموع » ؟.

لقـد كانت .. جميلـــة

لم يرها .. بل سمع قصتها قصة بؤسها وشقائها وترملها ، قصة اطفالها الاربعة الذين تركهم والدهم فى لحظة من اللحظات ولم يعد ، لقد ذهب .. لم يمت ولم يقتل .. ولكنه تركها والاطفـال الاربعـة و « ورقـة » تحمل كلمات قليلة تنهى كل شىء كان بينه وبينها ! .

وتحرك ـ الانسان ـ فى قلبه وهو يسمع قصتها .. تحرك الحنان فى صدره .. وامتلات بالدموع عيناه ، فلقد راى فى حياة الاطفال والارملة امسه الشقى المعذب . راى فى اطفالها اليتم الذى عاشه .. راى فى ضعفها وحيرتها ضعف امه وحيرتها ايام ان كان صغيرا .

وتحركت صور ماضيه الراقدة فى ذهنه .. والراسبة فى اعماق قلبه .. تحركت وبعنف فملات آفاق خيالية حتى بدا له ان الماضى ـ قد اصبح ـ حاضرا ـ وان يتمه وايام حيرته قد بعثت من جديد ، وامسك القلم يكتب لها رسالة .. كلماتها من امسه المعذب .. وحروفها مـن انسانيته الرحيمة .. وسطورها من عواطفه الانسانية ـ المجردة ـ التى تحركت نحو الارملة صاحبة الاربعة اطفال .

وطرح امامها كل ـ مساعدة ـ يملكها من اجل ـ الانسانية ـ التى تحترق فى اجساد الصغار الاربعة .. من اجل الفقر الذى ينهش لياليهم .. من اجل البيت الذى لا تدخله الشمس ، لانه بيت بدون نوافذ .

واخذ ينتظر اجابة منها رسالة منها .. ترحب فيها ـ بمساعدته ـ او ترفضها ـ فذلك شانها ، ومضى يوم وآخر وثالث ..

وفى اليوم الرابع ، كان يقف بجوار العمارة التى يسكن احد ادوارها العلوية .. والاطفال الاربعة والذين لم يرهم يوما يملاون قلبه خوفا عليهم .. وحبا لهم .. وحنانا من اجلهم ، ومرت به الارملة صاحبة الاربعة اطفال ..

فى لحظة من لحظات تخيله تلك .. مرت به ، ثم .. وقفت لتشكره فى حياء .. ولتشكر عواطفه الانسانية فى رقة وادب .

واخذ يستمع اليها .. يصغى بانتباه وهو يطيل النظر الى عينيها.. ويترك عينيها لتنسدل نظراته فوقها .. فتلفها وتجمعها له .

استمع اليها . واصغى طويلا واحس ان ـ الانسان ـ الرحيم يموت فى قلبه دقيقة بعد دقيقة وحينما صمتت كان قد قرر شيئا واحدا .. قرر ان لا يساعدها .

فلقد كانت « جميلة » جميلة جدا ! وكان هو « انسانا » !

فهرست الموضوعات
الجزء الثانى

الصفحة	المواضيع
55	شىء ما !!
58	كان الليل صديقى !
59	واحسست السعادة
62	طفلة الصدفة
65	مات ابى
66	فى ظل
67	قبر الحب
69	الامل وحده لا يكفى
70	هزيمة الحب
72	الحدود الشائكة

شـــــيء مـــا !

حينما كان يعيش على ندى امه وسواعدها .. لم يكن هناك من يعرفه .. ولم يكن هناك من يحفل به .. او بحياته .. او بطفولته .. بمرضه او بصحته ... بكسائه او بعريه ..

فلما تفتحت عيناه .. وكبر .. تساءل عن اقربائه .. عن اصله .. ولم يجد جوابا ، لم يجد غير اشقائه اليتامى الثلاثة .. وبابهم المقفل الذى لم تطرقه يد .. ولمبة جاز ينتهى وقودها عند العشاء .. والصمت والصبـر ..!!

وحينما دخل المدرسة .. وجد نفسه وحيدا بين زملائـه الذيـن احبوا بعضهم وتآلفوا .. اما هو فلم يحبه احد .. ولم يعطف عليه احد ، اذ لم يكن لديه ما يشترى به حبهم ... ولم يكن ليستطيع ان يقدم مقابلا لعواطفهم ..

كان « جيبه » خاويا .. وكانت جيوبهم محشوة ثقيلـة .. فلـم يستطع ان ينتزع من بينهم اصدقاء له .. وكل ما استطاع ان يفعله هو ان ينتزع « النجاح » والتصفيق من يد واحدة هى يد امـه واشقائـه الثلاثـة ..!!

ودلف الى الجامعة ليجد ان عدد اصدقائه .. كل اصدقائه ومعارفة لا يتجاوز اصابع اليد الواحدة ، وكم حاول ان يغالط نفسه ، بانهم اكثر من ذلك .. ولكن الحقيقة كانت اكبر من ان يغالطها او يعاندها ..
اصابع اليد الواحدة ، وكم حاول ان يغالط نفسه ، بانهم اكثر من ذلك .. ولكن الحقيقة كانت اكبر ان يغالطها او يعاندها ..

ومضت به الايام .. يجد نفسه حينا .. ولا يجدها فى كثير من الاحايين .. حتى جاء ذلك اليوم الذى وجد فى يديه عشر رسائل .. كلها تهنئة ... تهنئه بنجاحه .. وتتمنى له «حياة سعيدة» .. ومستقبلا زاهرا و « مجدا عظيما » .. و .. و .. وبين السطور كل « الحب » .. كل « الوفاء » .. كل « التقدير » .. و .. وفتح فمه مستغربا .. مندهشا .. فالرسائل كانت لاسماء سمع عنها ولم يعرفها .. اسماء لم تتصل به قط ولم يتصل بها .. لم يعايشها ولم تعايشه .. وتساءل حائـرا : كيف ..؟

ولكنه لم يعـرف « كيف » ؟

وتسلم « عملا » .. فكان مطرا انبت اصدقاء ومعارف واقربـاء ـ ايضا ـ ، مطرا .. انبتهم من عدم اذ لم يكن لديه اصدقاء ومعـارف واقرباء ، ولكن هكذا .. وبين يوم وليلة تضاعف كل شىء .. تضاعف الحب والتقدير .. وايضا الاصدقاء والمعارف والاقرباء ، واصبح له اكثر من « اب » .. واكثر من « اخ » .. واكثر من « عم » .. الكل يقول له « ولدى » ... « اخى » .. « حبيبى » ..

وتلفت فى تلك الوجوه التى تضحك له وتبتسم .. تلفت فيها محاولا ان يتعرف عليها .. ولكنه لم يستطع .. فهو ـ حقا ـ لا يعرف احدا منها ..

ربما سمع بهم .. ولكنه لم يرهم ابدا .. لم يرهم فى يوم من ايامه الماضية .. لم يرهم فى ليلة من ليالى لمبة الجاز والباب المقفل والصمت والصبر ..؟

وحينما اعتصر ذاكرته .. واجهدها .. تذكر انه لمح بعضهم وهم يمضون فى عرباتهم فلا يتركون له غير الغبار يتصاعد امامه ... ولمـح البعض الآخر وهو يتصدر حفلات الافراح والمآتم ويتشاغلون عنه .. و .. وكل ذلك لم يجعله « يتعرف » على احد منهم ، ولكن لا سبيل .. فهم الآن يلتفون حوله .. وينادونه « بتودد » .. ولدى .. اخى ..

حبيبى ، لا سبيل الى مواجهتهم بالحقيقة التى تضع بها نفسه ... بل هناك سبيل واحد .. هو مواجهة نفسه بانها حياة مقابل واسعار واثمان ..

★ ★ ★

وكان يمكن له ان يعيش كما يريد هؤلاء .. بعد ان تكشفت له حقيقة الاحياء والحياة مجردة من كل غطاء ، كان يمكن له ان يعايشهم وهو يجتر آلامه فى صبر وصمت ، ولكنه صعق ذات يوم .. صعق حينما تقدم منه رجل وسيم .. تبدو عليه رجولة صارمة .. وتكسو صوته طبقة خشنة .. واقترب الرجل منه هامسا : انا ابن خالك ..!!!

وصعق لتلك الجملة .. صعق .. فلم يكن له « خال » فى يوم من الايام .. ولم يكن لوالدته شقيق او غير شقيق .. فكيف اصبح له « ابن خال » ؟!

ولم يحر الرجل الوسيم صاحب الرجولة الصارمة والصوت الخشن .. لم يحر جوابا .. بل اخذ يقص عليه قصة مضى عليها ما يقارب الخمسين عاما ، والقصة .. كل القصة .. هى انه اخ لامه من الرضاعة ..!! وانه يقصده الآن طلبا فى مساعدته .. و .. ؟!

وضحك .. وهو ينتحب فى داخله « لصك الرضاعة » هذا .. لكمبيالة الرضاعة هذه .. ضحك منتحبا وهو يقدم للرجل الوسيم صاحب الرجولة الصارمة شيئا ..

وخرج الرجل .. واخذ هو يتاوه .. يصيح بسؤال مر .. ينز علقما : اين كان هؤلاء .. ومتى عرفنى هؤلاء ؟

آخذ يردد هذا السؤال وهو يعرف اجابته .. يعرف انها حياة مقابل كل شىء فيها بثمن .. يعرف انها جحيم « مسعر » كل شىء فيه بتسعيره .. يعرف انها حياة : الفقر فيها ينبت جدبا .. والمال والجاه فيها ينبت اصدقاء ومعارف واقرباء وايضا حملة صكوك رضاعة ، ويعرف بعد كل هذا انها حياة بشر .. لا تحتاج علاجا .. بل تحتاج استئصالا ..

وصمت .. صمت كل ما فى نفسه .. الا دمعة اخذت تنحدر على خده .. تبكى لهم .. وعليهم ..!؟

كـان الليـــل صـديقـى !

لقـد كـان ..!!

كان الليل صديقى .. حينما كنت التقى وملائكته البيضـاء .. فيخبو نور العيون بين سحابات النوم .. لقد كان صديقى حينما كـان يمنحنى شيئا من سكونه وسكينته ... حينما كان يعطينى شيئا من حنان السحر .. حينما كان يسكب فى قلبى بعضا من ضياء قمره الغض حينما كان يحنو على جسدى من وهج الشمس .. شموس النهار ..

وظلمنى الليل من شهور .. ظلمنى الليل كما فعل النهار .. ظلمنى الليل حين استبدل كل ذلك بسحر « مقلق » .. فاعطانى قلقه من النجوم .. واعطانى خوفه من الصباح .. ومنحنى لوعة عمره القصير .. ومنحنى اضطراب ساعاته بين الشفق والشروق ..

وضاعت صداقة الليل .. بعد كل ذلك العطاء .. ضاعت بعـد عطاء القلق والخوف واللوعة والاضطراب ، ضاعت .. فسهرت الليل نهارا .. لاسعد واشقى بليل فجعلت منه نهارا ..؟!

يا اصدقاء الليل .. يا من عرفتم نومه الطويل .. وراحته الناعمة، يا اصدقاء الليل .. يا من عرفتم احلامه السعيدة .. وطافت بكم رؤاه الناعسة : خذوا سحره المقلق .. وعودوا بى الى ملائكته البيض .. فلقد اشتقت الى « النوم » ..

ولكن هل يمكن ذلك .. وقد كنت والليل اصدقاء ، لا احسب ذلك ..

فلقد كـان ..!!

كان الليل صديقـى ..!!

واحســـت « السعادة » .. !

كان الهواء يملا جيوبه « الاربعة » بعد ان فرغ كل ما فيها من نقود ، ولكن ذلك لم يكن ليتعسه او ليشقيه .. فالسعادة عنده شيء آخر غير ذلك ..!!

لقد تعود ان يعيش ايام النصف الثانى من كل شهر هكذا .. ياكل « البيض » ثلاث مرات فى اليوم .. و « اللحمة » مرة كل يومين ليلتقى فى مطلع الشهر « بالجزار » والبقال وفواتيرهما التى كادت ان تصبح روتينية ..

وفى صباح يوم من تلك الايام كان يجلس فى بيته على احدى « الفوتيهات » وقد علق قدميه باسترخاء وكسل فوق المنضدة ذات الغطاء الزجاجى .. بفمه سيجارة لما يشعلها بعد .. وقدح من الشاى تتصاعد منه الابخرة ينتظر على الطرف الآخر من المنضدة ، وخادمته العجوز .. او « سيدة » المنزل فليس فى المنزل سيدة سواها .. تجلس هى الاخرى على الارض ، جلستها « الحزينة » والغاضبة التى تعودتها كلما فرغ جيب سيدها من النقود ..

كانت تجلس هادئة الحركة .. سريعة الكلمات ، تعدد مساوىء سيدها .. وتذكره « بفراطته » فى النقود التى لم تجلب لهما خيرا غير « طولة لسان » الجزار والبقال .. وانه لا طائل من وراء هذه « البعزقة » .. و .. و ..

ويصغى هو الى كلماتها الثائرة ببرود يستفزها اكثر واكثر .. لتعيد كلماتها مرة ثانية وكانها « توبخه » .. ثم تتساءل وتجيب نفسها

وتشكو من انه لم يعد لديها قرش واحد لتشترى به قرطاسا من الترمس ، وحين يجف اللعاب ، من فمها .. تمد يدها الى قدح الشاى الذى بجوارها لتاخذ منه رشفات .. تمكنها من مواصلة حديثها الثائر والغاضب مرة ثانية ..

وفى تلك اللحظات التى كانت تتوقف فيها عن الحديث .. كان يقول لها : ان النقود « يا دادتى » تاتى وتذهب .. وهى حين تاتى لا تسبب شيئا من السعادة .. وهى حين تذهب لا تسبب كثيرا من الاذى ، وعلى اية حال غدا ستاتينا النقود التى سترضيك حتما .. ولن يكون ذلك الغد بعيدا !!

وترمقه بنظرة وكانها ترفض تدليله لها .. ثم تجيبه ثائرة متالمة حزينة : وماذا نفعل اليوم اذا ما فوجئنا باية مفاجاة ...؟!

يقول لها ضاحكا وقد انتصفت سيجارته : ان المفاجآت تعرف الوقت الذى تاتى فيه .. وهى لن تصطاد الكرماء لتوقعهم فى «مازق»..!

وقبل ان ينتهى من كلماته كان جرس الباب يدق .. فنهضت وهى تقول : « اللهم اجعله خيرا » ...؟! ولكنه لم يكن « خيرا » ابدا .. بل كان « انذارا » من شركة الكهرباء بفصل التيار الكهربائى عنهم اذ اهم لم يسددوا « الفاتورة » خلال ثلاثة ايام .. وكان ذلك اليوم هو اليوم الاخير من ايام الانذار ..

وعادت اليه غاضبة بعد ان علمت من « المحصل » بمضمون تلك الورقة وهى تقول « والآن .. ماذا نفعل » ولم تنتظر اجابته .. بل اعادت « الاسطونة » ذاتها وهو يقلب فى الورقة ويلتفت اليها قائلا بعطف وتاثر بالغين : « حقيقة .. ماذا نفعل الآن » !؟

فلم يعد لدى الخادمة قرش واحد لتشترى به قرطاسا من الترمس كما كانت تقول منذ لحظات .. واستغرق فى التفكير .. ليقطعه عليه صوت رنين الجرس مرة ثانية ، فلقد ضاق « المحصل » لوقفته على الباب .. فاخذ يستعجلهم « برن » الجرس مرة ثانية وذهبت اليه الخادمة وقد عز عليها ما يعانيه سيدها .. لتستمهله .. ثم عادت وقد ازداد غضبها ، واطبقت شفتيها عن الكلام .. وراحت فى الغرفة المجاورة تفتش فى حقيبتها الصغيرة .. ثم جاءته لتضع بين يديه كل ما كانت تحتجزه من نقود وهى تقول : انها النقود التى سادفعها « للخياطة » ثمنا لحياكة فستانى الجديد .. هانذا ساعطيها للرجل الذى يقف بالباب .. فلعل ذلك يعلمك ! واجابها .. وقد غمر وجهه فيض من السعادة : بل تعلمت شيئا آخر غير الذى تودين .. واحسست شيئا آخر لا يخطر ببالك .. لقد احسست « السعادة » ..!

طفلـــة الصـدفـة ..!

.. نسمات رطبة ندية .. تمر بى ، اتحسسها تلمس وجهى .. تحيط جسدى فى هذه الساعة من الليل .. واستنشق فيها رائحة الذكريات .. ذكريات الامس ذكريات شاقها ان تزورنى فى السحر وهى تمتطى النسيم لتقص على ، قصص الامس وليالى الامس ، وحكايات الامس ، قصص عذبة وان كانت حزينة ، وحكايات عذبة وان كانت مصبوغة بالالم .. استمع اليها .. ثم اتمتم .. لاشيء يعدل الحب ، لا شيء ابدا ؟! تماما مثلما قالها شهريار لابيه فى قديم الزمن ، حينما تزوج من « بنت الجنايني » وتماما مثلما قالها استيفان روكفلر لابيه فى العصر الحديث . حينما تزوج من الفتاة النرويجية والتى كانت تعمل ما بين « المطبخ » والحديقة ، واتمتم اليوم لاقولها وانا استقبل العيد : لا شيء يعدل الحب !؟.

وليس لزاما ان يكون من نوع حب شهريار ، او حب استيفان روكفلر .. لا .. ابدا .. فالحب انواع ، والوان ، وفى « العيد » كل انواع الحب ، والوانه ، واشكاله ..

والذكريات تمر بى ، لتقص على قصتها ، قصة زينب ، او طفلة الصدفة .. زينب الطفلة التى بلغت من عمرها عشر سنوات ، عاشتهم فى حرمان متصل لا تعرف السعادة لانها تسكن بيتا ليست له نافذة لتتسلل منها السعادة ، ولا تعرف الضحكات لانها لم تر فى طفولتها غير دموع امها ، ولا تعرف شيئا من بيوت الآخرين غير غرفة المطبخ ، لان امها تعمل فى تنظيف الملابس وغسلها ، هذه هى زينب ، التقيت بها وببؤسها ، وبطفولتها التعسة فى يوم من رمضان خلى منذ عامين التقيت

بها ـ وانا ادرس طب الاسنان ـ كمريضة جاءت تطلب لنفسها العلاج ، وجلست الى بطفولتها الحزينة ، ببراءتها ، بصوتها الحنون الهادىء الحنون الذى لا زلت اسمعه ، كانه معى ، كانه بجانبى ، وكان من عمر الزمن لم تمض اعوام .

وتفحصت ملابسها جيدا .. نعم ملابسها ! ولعل كلمة ملابس هذه اكبر من الواقع بكثير ولان ما كانت ترتديه لا يعدو ان يكون سوى فستان ، فستان تغير لونه ، وتمزقت اطرافه واختلفت ابعاده مع ابعاد جسدها الناحل الصغير لانه « فستان صدقة » !

وسالتها ان كانت تملك فستانا آخر غير هذا ؟ فاجابتنى : « يا ريت » . ولم اكتف بل سالتها مرة ثانية .. وماذا ستفعلين فى العيد ؟ وتهلل وجهها الحزين ضاحكا وقالت : لقد وعدتنى امى منذ ثلاث سنوات بانها ستشترى لى فستانا جديدا اقضى به العيد ، ولكن مضى على وعدها ثلاث سنوات ولم تشتر لى فستانا جديدا حتى الآن ولعلها تستطيع ان تحقق لى فى هذه السنة احلامى .. « اصله احنا كده فقراء ..!! ثم صمتت .. سرحت .. ولم تتكلم ، ولم اتكلم ، ثم عادت لتقول لى ان لها تسعة اخوة ، ليس لهم من عائل سوى الام .. الام التى يهدها العمل كل يوم ، ولا تجد بعد ساعات العمل غير قروش زهيدة لا تملا معدة الصغار ..

ومضى بعض من الوقت .. عادت بعده لتسالنى ان كنت املك « بدلة » اخرى غير هذه التى ارتديها الآن ، واجبتها خجلا : نعم يا صغيرتى ، نعم .. اننى املك غير هذه .. نعم ويا لخجلى من سؤالك يا صغيرتى ويا لحيرتى ، ثم قررت وافصحت لها بقرارى .. قررت قرارا « تافها » قررت ان اشترى لها فستانا جديدا لترتديه فى العيد لتسعد به ، ولتضحك ولو لمرة واحدة ، ولتزهو بنفسها ولو لمرة واحدة .

وتركتنى وكان ذلك آخر ايام علاجها ، تركتنى لاذهب الى السوق ابحث لها عن فستان للعيد ، ووجدته .. فستان مرح .. ضاحك .. زاهى الالوان .. ينسجم وطفولتها البريئة ..

واخذت انتظر ان تاتى ، وان تعود ، ومر يوم ، وآخر .. وآخر حتى جاء العيد .. وزينب لم تعد .. لم تات لتاخذ الفستان وكان ذلك اسوا عيد عرفته .. فكلما كانت تلتقى عينى بالفستان اتذكرها .. اتذكر صوتها الحانى الحزين .. اتذكر كلمتها لى وهى تقول « يا ريت » .. اتذكر سؤالها المحرج ..

اتذكر كل هذا وانا ابحث عنها فى الشوارع ، فى الاسواق ، فى الحدائق .. ابحث عن صدفة تجمعنى بها ، لاقدم لها فستانى على بساطته ، ولكن الصدفة ابت ان تجمعنى بها مرة ثانية ، ابت ان تسعدنى بلقائها مرة ثانية ، الى ان انقضى عام آخر ايام طويلة وانا ابحث عن الصدفة التى تجمعنى بها ، ثم وجدتها .. وجدتها وكانها هبطت الى من السماء زينب الطفلة الحزينة التى كانت تحلم بان يكون لها فستان جديد ... وجدتها وبعد طول عناء .. ولكن وجدتها تقف على احدى المحلات وقد اشترت لها امها فستانا جديدا ـ لعله ذلك الذى وعدتها به .. وتالمت .. تالمت .. لاننى تاخرت عن الموعد المناسب فاتتنى المناسبة ومع ذلك .. قصصت عليها قصتى معها ومع الصدفة .. فقالت .. كنت اظنك تضحك منى كما يضحك الآخرون

وقدمت لها الفستان الذى اقلقنى اياما طويلة وافقدنى لذة الاستمتاع بالعيد .. واستبدل ضحكاتى وفرحى بالعيد الى مرارة احسها فى حلقى ..

وكم من جراح مثل جراح زينب .. وكم من آلام مثل آلامها .. وكم من آمال مثل آمالها .. وفى كل شبر من الارض تقبع زينب اخرى زينب حزينة .. تحلم احلاما صغيرة تحس انها اكبر من ان تتحقق .. اكبر من ان ترى النور .

مـــات ابـــى

كان صباحا مشرقا .. وادعا .. استهوانى لامشى على قدمى ..

وعلى بعد منى رايته .. كان يقف معهم .. يلعب معهم .. يركض معهم .. ويتسابق معهم. فهو طفل مثلهم .. جميل مثلهم .. بريء مثلهم .. شفاف مثلهم .. مثل هؤلاء الاطفال جميعا الذين يلعبون فى الحديقة ..

ولكنه حزين .. حزين بدون الم .. حزين بدون تشويه .. حزين بلا دموع .. حزين الى درجة نغصت فرحتى بذلك الصباح المشرق الوادع ..

انهم يضحكون .. وهو لا يضحك .. خدودهم حمراء ووجهه اصفر .. هم يتهافتون على عربة «الايس كريم» وهو ينتحى بعيدا .. لا يعود شيئا احس ان فى جيبه نقودا .. يستطيع ان يشترى بها لو اراد .. ولكنه لا يفعل . ترى ماذا به ؟ ترى كيف عرف الحزن طريقه اليه ؟

وحاولت ان اعرف .. وانا على بعد منه .. اعملت ذهنى .. ولكننى لم استطع فاقتربت منه .. خائفا متزلفا .. استجديه الانتظار ، ولكنه وهو فى وقفته المتجمدة تلك .. لم يبد حراكا .. لم يبتعد كما يفعل الاطفال .. لم يركض بعيدا وانا الغريب عنه ..

فاردت ان الاطفه .. ان امرح معه .. ولكن وجهه الحزين .. نظرته الحزينة اذابت الكلمات المرحة على شفتى .. واستبدلتها بالسؤال .. ترى ماذا به ؟!

ومن كلماته المتلعثمة .. ومن صوته الغائر .. التقطت هذه الكلمات: « بابا اليوم مات » ؟!

وادرت وجهى بعيدا عنه .. ومضيت ، ومعى مضت احزانه .. والكثير من الخجل لقد خجلت من فرحتى بذلك الصباح ... المشرق الوادع ..

فـــى ظـــل

الاسد.. يتربع فى عرينه.. يرفل فى النعيم ويعيش عيشةالترف.. وترفهه يفـوق ذلك الذى كان يعيشه ساردانا بالوس فى صبـاحـه ومسائه .. وليله .. والشروق ..

يهز جنبات الغابة بزارة مجلجلة ، يطلقها من فمه وتردد صداها الغابات والوديان فيعقبها بابتسامة اعتزاز وفخر . ثم يقص على « ابن آوى » بطولاته وجولاته .. وهو يتحسس بغرور عضلاته وسواعده .. ثم يغمض عينيه لينام قرير العين ، فلا ينام الا الاقوياء .. لا خـوف ولا قلق وابن آوى .. الخائف الضعيف .. يمشى فى ظلال الاسـد واعقابه .. ينظر اليه بانكسار وياكل فتاته .. ويلعق بقاياه .. ويتسمع همس الفريسة الجديدة ليهديه اليها حتى يضاعف له من رضاه ، وهو لا يحسد الاسد بعد كل هذا .. فهو لا يقوى على ذلك .. ولا يغبطه لان شعورا بالنقص يتملكه . ولكنه مع كل هذا «يطمع» فى ترف الاسد ونعيمه وحياة سارد انابالوس، يطمع.. ولاشىء غير ذلك.. ويتمنى حالما ولاشىء غير ذلك، لاشىء غير ان يلوك امانيه واطماعه وهو يتابع السير الذليل .. ثم يتقياها دفعة واحدة اذا ما سمع صـوت الاسـد يدمدم بجـواره .

وهذه هى « الحياة » ..!؟ ليست هناك فروق كبيرة بين الغـابـة والحياة الانسانية عشرات من الاسود .. ومـلايين من ابـن آوى .. عشرات من ظلال الاسود يعيش فيها آلاف من ابن آوى .

ومسكين هو الاسد .. ومظلوم هو آبن آوى .

قبـــر الحـــب

احبها بقلبه .. وبروحه .. وبكل نبضة من نبضات عمره الوردى ، حتى بدا لها ان حبه لن يموت ابدا ..

ثم .. سافر ! مضى والحب فى قلبه .. والدمع فى عينيه .. والآمال الخضراء تختلط ببسمات الفراق المحرقة ، مضى وترك لها حبا ترك لها «وعدا» .. وعهدا تلتقى عنده احلامها ، فلقد قال لها انه سيعود .. سيعود ليحقق حلم ليل الحب الطويل .. سيعود ليصنع لامالهما عشا . سيعود لان على شواطىء حبها يقف زورق « سعادته » الوحيد..

ومن هناك .. من بعيد كتب لها رسائل حروفها من شوقه .. وسطورها من حنينه .. وكلماتها بعضا من حبه ، وكانت تصلها رسائله بانتظام .. تذكرها بلياليه .. بايامه .. بوروده الحمراء .. باحاديثه الطويلة .. وبرسائله الزرقاء تلك التى كان يكتبها وهو على بعد خطوات منها فتشدها اليه .. والى حبه .. وتجعلها تلتصق بشوق الى جدار وعوده وعهده .

ومضى عام .. وهى تنتظر .. ثم عام آخر وهى تجتر الذكريات والوعود .. فتلوك سطوره التى ما زال يكتبها لها ، لتبتلع بها مرارة الانتظار ..

ومضى العام الثالث .. ولم يعد .. لم يعد ليحقق الاحلام .. لم يعد ليصنع العش .. وينطلق بالزورق « الوحيد » فى حياته ، ولكنها ما زالت تنتظره .. رغم الليالى الطوال .. التى غدا سيرها بطيئا .. ما زالت تنتظره فكلماته التى قالها مرارا وكتبها كثيرا ما زالت ترن بالفرحة فى قلبها .. ونظراته الحبيبة ما زالت معلقة باهدابها .. وبسماته الحانية ما زالت تهتف لنفسها بانه : سيعود !!

وفي آخر يوم من ايام العام الثالث .. كانت تجلس ، تقرا رسالة من رسائله المنتظمة .. قراتها مرة وثانية ولكنها لم تجد شيئا منه .. لم تجد شيئا من حبه .. لم تجد شيئا يذكرها باحلامها وآمالها ..

وبيد باردة .. اخذت تمزق الرسالة .. تقطعها .. وتسحقها باقدامها .. تحقرها .. وتبصق عليها ، فلقد اكتشفت شيئا من خلال كلماته القليلة تلك .. وبعد الانتظار المرير .. اكتشفت انه احب فتاة « اخرى » !!

الامـل وحـده .. لا يكفـى

كلنا ينتظر ..؟

كلنا ينتظر شيئا ما .. شيئا يتحقق فى حياته .. فى واقعه .. فيتحقق وجوده ، كلنا ينتظر شيئا ما .. سعادة بعد شقاء .. شفـاء بعد مرض .. لقاء بعد فراق .. صبح جديد بعد ليل طويل .. حياة متجددة بعد اكتئاب ممل .. غنى بعد فقر ! وهكذا .. كلنا ينتظر وان اختلفنا فيما ننتظر ؟ .

ومع « الانتظار » .. يقف ـ الامل ـ ليجعل الانتظار هينا رقيقا .. لا يقض المضاجع .. ولا يؤرق طوال الليل والنهار .. ولا يجعل الاحساس بالزمن ومروره حادا عنيفا مهلكا ، وبجانب كل هذا الذى يفعله الامل وفى اللحظة ذاتها يخدر قوى الانسان .. ويحقن عضـلات السواعـد بمحاليله السحرية .. فلا تقوى على العمل .. وتشك به .. ولا ترغب فيه .. ولا تحسب ان بمقدوره ان يفعل كل شىء وان يحقق كل شىء حتى السعادة بعد الشقاء .. وحتى الشفاء بعد المرض .. وحتى اللقاء بعد الفراق !!

ويطحن ـ الانتظار ـ الشهور والسنين .. فينهـب الـوقت .. يمضى ولا شىء يتحقق ، وتكتشف ان الامل ـ المطلق ـ هو وحده الذى بدد الزمن واضاع الوقت والعمر ايضا .. لان الانتظار كان يرافقه الامل وحده .. كان يرافقه الامل المطلق ..

حقيقة .. ان الذين ينتظرون تحقيق شىء ما فى حياتهم بالامـل المطلق ... بالامل وحده .... بالامل فقط ، كمن ينتظر مائدة من السماء .. ولم تعد هناك موائد تنزل من السماء .. بعد مائدة المسيح عيسى من مريم .. فاشعلوا ثقابا فى الامل ـ المطلق ـ .. ليحترق .. فلا يعود !!

هـــزيمـــة الحـــب ..!

وجاء المساء .. ولم يعد كعادته ، واخذت هى تنتظره ، القلق يملاها .. والخوف عليه يعصف بنفسها .. والحنين اليه يغمر قلبها .

ومضت ساعات المساء .. راكدة بطيئة .. تقطع صمتها اجراس البيت وهى تدق فى خيالها واوهامها .. لحظة تسمع فيها رنين التليفون وتحسب انه يتصل بها ، فتهرع الى التليفون لتجده باردا لا رنين ولا حرارة فيه ، واخرى تسمع فيها جرس الباب يدق فتقفز اليه ظانة انه عاد ، ولكنها لاتجد احدا عند البـاب ، وانتصف الليـل وهو لـم يعد ، واخذت تغالب ـ النعاس ـ الذى بدا يتسلل الى جفنيها ، تغسل وجهها .. وتفتح النافذة لينعشها هواء الليل وهو يعلن عـن قـدوم السحر !.

ثم سمعت وقد اقترب الفجر .. سمعت وقع اقدام تقترب مـن الباب فلقد عاد ، حقيقة ولكنه لايكلمها .. ولا يعتذر عن تاخيره وهى المنتظرة القلقة الخائفة .. حتى تحية ـ المسـاء ـ لم يلقها عليهـا ، واخذت هى تنظر اليه .. والى تقاطيع وجهه الوسيم ، وعينيه الحالمتين دائما ووقفته الانيقة تلك وهو يستبدل ملابسه ، لم تتكلم .. ولم تثر ولم تغضب .. بل اخذت تنظر اليه بكل حنانها .. وكل خوفها وكـل قلقها ..

واستلقى لينام .. وكانه لا يعرف هذه « المخلوقة » زوجته وحينما صحا من نومه كانت هناك بقايا احلام سعيدة ما زالت معلقة بعينيه ، حتى بدت له اليقظة حلما .. وبدا الضحى امتدادا لليل قمرى الساعات والدقائق ..

واراد ان ينام مرة ثانية..ويطبق جفنيه على احلامه تلك الحبيبة.. وان يطبق شفتيه على بقايا الليلة السعيدة . فلقد اخذت زوجته توقظه بقبلاتها وهو الذى امضى ليلته بعيدا عنها وعـاد دون ان يكلمهـا .. وحينما استيقظ وراى زوجته ..

وابتلعت ريقها المسكينة زوجته واخذت تبكى .. فلقـد كـانت « تحبه » !.

الحـــدود الشـــائكـــة ؟!

منذ ان فتح عينيه على الدنيا .. وابصرها صبيا ... وغلاما .. وفتى ، واحلامه تكبر معه .. ولم تكن تلك الاحلام التى ملات قلبه .. وآفاق تفكيره .... وارض آماله .. غير حلم واحد كبير .. جمع الاحلام كلها .. هو : « شهادة الليسانس » نقطة الانطلاق .. النور الاخضر ... بداية احلام اخرى جديدة ..

ومرت به ليال طوال .. وهو يعانق القمر ويصادق الثريا .. وبين يديه عشرات من الكتب .. وعيناه معلقة بمئات من السطور ... وقلبه « يحاول » ان يستوعب كل ذلك ، ليقفز باحلامه من سمائها .. الى دنيا الحقيقة ...

ولكن حظه السىء كان معولا يهدم احلامه .. يدكها .. يحيلها الى اكوام من التراب ، كان حظه العاثر رياحا تبعثر احلامه .. وموجا مضطربا يحاول ان يفرق تلك الآمال ، ومع معاول الحظ العاثر ورياحه وموجه المضطرب .. الا انه كان « قادرا » على ان يجمع شتات نفسه بعد كل عام دراسى – ينتهى بهذه الكلمة : « راسبا » – ليبدا من جديد يركض .. ويجرى من جديد .. ويعود الى معانقة القمر .. ومصادقة الثريا .. منشغلا عن كل شىء الا احلامه .. او حلمه الكبير ..

لقد كانت عزيمته اقوى من هزائمه .. وكان صبره اكبر من فشله المكرر – ..؟ وكان نضاله اكبر من اقداره ، وبكل ذلك مضى .. حتى حمل الليسانس بين يديه .. وهو يطفىء ثلاثة وثلاثين شمعة ، هى عدد السنوات التى احترقت جهادا ونضالا وكفاحا من اجل الليسانس

ولم يكن لديه متسع من الوقت ليفرح « بالليسانس » .. وكل ما حدث انه ابتهج .. ابتهج وهو ينطلق ـ دون توقف ـ نحو غاياته ، فهو يعرف دربه جيدا .. هكذا كان يرى الاشياء امام عينيه واضحة جلية ، انطلق ليفتح مكتبا للقضاء .. يناضل فيه من اجل اصحاب الحقوق .. يدافع عنهم .. ولهم .. ثم ليكسب كسبا شريفا كل قرش فيه يمثل قطرة من عرقه .. من دمه .. من لياليه الطوال التى امضاها وهو يعانق القمر .. ويصادق الثريا .. وينازل جحافل الياس والهزيمة ..

وبدات الدنيا تكفر عن سيئاتها نحوه عندما افتتح مكتبه .. فكانت رفقة الحظ والنجاح ونعيم عطاء الدنيا ، بديلا للنحس والفشل والحرمان وعلى حبات رمل من السعادة .. اخذت خطواته تنتقل .. فاشترى العربة ووضع فى جيبه منديلا معطرا .. وانتعل فى قدميه افخر انواع الاحذية .. ولعب البريدج .. وعرف حفلات الاستقبال والكوكتيل ..

ولم تلهه رفقة الحظ والنجاح ونعيم العطاء .. عن ان يفكر فى الغد .. ورحلته الطويلة .. والتى ستنتهى حتما بالخريف .. والوحدة والجفاف .. هكذا كان يفكر ايضا ، فلم يمهل نفسه كثيرا .. بل تزوج باول فتاة طرقت باب قلبه .. ليمضى الى « عش الزوجية » .. وهو ينتقل فى اللحظة نفسها الى عامه السادس والثلاثين ..

واثث البيت بكل جديد .. وممتع .. ومثير .. عشرات من التابلوهات والتحف والتماثيل وقطع الكريستال الملونة ، واخذ يتلهف على اللحظة التى سيرى فيها مولوده الاول .. الذى سيتوج ايامه ولياليه بسعادة « نادرة » ..!

وبعد ثلاثة اعوام .. وفى صباح يوم من ايام الشتاء .. كانت زوجته تقف الى جواره .. وتحدثه بهمس المحبين .. وحنان المشفقين: ستغدو يا عزيزى ابا .. وحلمك سيصبح حقيقة ..

والتفت اليها .. وهو يقول منتشيا : ولكنه تاخر كثيرا ..!
وتجيبه ضاحكه : لا .. لم يتاخر .. تماما .. « كالليسانس » .. جاء بعد ثلاثة اعوام ..!

وضحك .. ضحكة هناء .. لازمته طوال التسعة شهور التى قطعها الطفل فى احشاء امه ، الى ان التقت عيناه به .. فراى فيه شيئا من طفولته .. شيئا من عبوسه .. وربما من ضحكته ..

وبعد سنتين .. مرتا كسحابتين فى ليلة عاصفة من ليالى الشتاء .. كليلتين فى عمر محبين .. كزهرتين بين زهور عباد الشمس ، استقبل مولوده الثانى .. وكل جارحة فيه تصفق وترقص وتغنى للدنيا ، لقد احس فى تلك اللحظة ان صرح سعادته قد لامس السماء .. وعانق السحابات الهائمة فى الفضاء .. وصنع من النجوم مصابيح له ..

حقيقة انه بلغ من عمره واحد واربعين عاما .. ولكنه ما زال يحس الشباب كل الشباب .. فى دمائه .. فى عروقه .. فى نبضات قلبه .. فى خطواته الواثقة المطمئنة .. فى صدره وساعديه ، ومع ذلك .. مع كل ذلك مرت به لحظة لم يكن ليعرفها من قبل .. انصت فيها وهو يحس انفى نفسه شيئا يدمدم .. يريد ان يقول شيئا .. ان يتكلم .. ان ينطق ، ولكنه سرعان ما اشاح بكل خواطره بعيدا فلم يعود نفسه يوما ان ينظر باتجاهها .. باتجاه الداخل .. ولكنه عود نفسه ان ينظر خارجها ..

★ ★ ★

ومضى الزمن بلا رحمته .. بلا شفقته .. بلا حنانه .. حتى وجد نفسه يرافق « سعيدا » و « هناء » الى احدى حدائق الاطفال ليلحقهما بها ، والسعادة كل السعادة تغمره .. تفيض من عينيه .. وتتقطر من اصابعه فى لمسات حانية فوق شعرى سعيد هناء .. وتجتمع كلها فى انصاته الهادىء لمديرة المدرسة وهى تحدثه عن عبث الصغار عن ذكائهم .. عن خبثهم المفضوح ، ثم سالته ـ سؤالها الاخير ـ كم

عمر الصغيرين ؟.. فاجابها بصوت فيه بعض من السعادة .. وكثير من الحنان : سعيد عمره ست سنوات .. وهناء عمرها اربع ..

واختفت حديقة الاطفال عن ناظريه .. وهو يغنى ويهتز ويدخن داخل عربته .. اختفت الحديقة عن ناظريه بكل ما فيها ما عدى كلمة واحدة ما زالت عالقة بذهنه .. كم عمر الصغيرين ..؟! وسال نفسه .. نعم كم عمريهما ..؟

وبعمريهما يتجدد عمرى : فلقد بلغت الثانية والاربعين حقا .. ولكن : ترى ماذا فعلت خلال تلك الاعوام التى انصرمت .. وماذا عساى ان افعل غدا ؟! واكتاب.. وهو يسمع السؤال حائرا.. تائها.. اليما يتردد فى نفسه ، ولكنه سرعان ما ضحك .. مؤكدا لنفسه بانه فعل شيئا قيما .. بل فعل اشياء ، وعاودته ثقته بنفسه وهو يقول لها لقد تخرجت من الجامعة واستقبلتنى الدنيا بوجه غير الذى كنت اعرفه وتزوجت .. وصنعت بيتا .. وانجبت طفلين .. وها انا الآن عائد بعد ان وضعتهما فى حديقة الاطفال ، لقد غرست غرسا .. لقد غرست شجرة .. وستثمر الشجرة وسياكل الناس ثمارها غدا .. و .. لا .. لقد فعلت الكثير .

وعاد الى حياته .. يعمل .. ويعرق .. ويضحك .. ويقرا .. ويستمع ويبتهج .. ويسافر كل عام الى مصيف لم يره من قبل ، وفى عام من الاعوام تخلف عن رحلة الصيف .. وترك العائلة تذهب الى احدى المصائف القريبة لسبب لا يدريه على وجه التحديد وان كان قد وضع اكثر من سبب « مقنع » امام زوجته وطفليه ..

وبقى وحيدا طيلة ثلاثة شهور : يعمل برتابة ... وياكل برتابة ويتسلى برتابة .. ويقاوم شعورا خفيا يدفعه الى النظر .. باتجاه الداخل .. باتجاه نفسه .. ثم باتجاه « الاشياء » .. كل الاشياء التى حوله ، ولم يستسلم لذلك القدر فاخذ يهرب منه .. يركض .. يجرى وكان هربه .. « نوما » .. وركضه نوما .. وجريه نوما ، فلقد كان

« النوم » هو السلاح الوحيد الذى يملكه .. والذى يستطيع ان يواجه به منطقة الرعب .. ارض الفزع .. الحدود الشائكة من « نفسه » ..!!

واستورد النوم ـ سلاحه الوحيد لنفسه ـ فى اقراص .. اخذ يتعاطاها كلما فرغ من عمله .. لتمنحه فرصة الركض .. والهرب .. والراحة من « جحيم » مواجهة نفسه والانفراد بها والاستماع اليها ..

وعادت زوجته مع طفليهما .. فاستقبلهم بالحنان الذى عرفوه .. بالوداعة التى عاشوها معه .. بالبسمات التى الفوها منه ، استقبلهما بهيام الشاب ـ وعواطف الرجل .. وحنان الاب ، وحين اختلى الى زوجته استمع اليها .. وكثيرا .. حدثها عن كل شىء .. كل شىء الا عن نفسه .. فلم يكن قادرا على ان يعبر عن شىء لما يستوضحه بعد .. شىء ما زال فى « منطقة الظل » من نفسه ..

وتعاقبت ايامه .. والسؤال الذى اضناه بدا وضحا .. يواجهه كل صباح : « ماذا فعلت .. ثم ماذا يمكن ان افعل ؟» وضعفت قدرته فى ان يقدم لنفسه جرعة من الثقة .. من اليقين .. من الطمانينة .. بانه فعل شيئا .. وانه سيفعل شيئا قيما .. قيما !؟

البيت .. والزوجة .. والطفلين .. والعمل .. والحياة «الرغدة» التى يحياها .. لم تعد لتحمله على ان يقول بانه فعل شيئا .. صنع شيئا وهو يواجه هذه الكلمة : « ثم .. ماذا ؟ » .

وذات صيف .. وقد خلى البيت الا منه ، كان يقف بجانب سور حديقة منزله .. يرمق البيت الذى شيده ـ بعض ما صنعه طوال التسعة والاربعين عاما التى مضت ـ ويرشف رشفات متلاصقة من فنجان الشاى الذى بين يديه ، ويلقى نظرة متاملة تمتد حتى صباه .. وترتد عائدة الى داخله .. الى نفسه .. والى اللحظة التى هو فيها .. ثم يتهدج صوت داخل اعماقه قائلا :

هل انا بحاجة الى حب ..؟ لا .. لا اعتقد .. فلقد احببت كل الاشياء .... جميعها : لقد احببت امالى جميعها .. احببت عملى .. زوجتى .. طفلى .. وشبابى الذى ما زلت حتى هذه اللحظة احسه قويا دافقا فى نفسى ، ولقد اشما زيت .... قرفت من كل ذلك الحب ان احساس النمل يتملكنى .. يزرع فى نفسى الضياع .. يحصده .. ويدفعنى اليه ، ترى انتظر ماذا .. ومن ..؟!

لقد بقى لدى بعض من الوقت .. وربما الكثير منه .. ونفذ رصيدى من الاحلام ، لم تعد هناك احلام جديدة ـ وهذه بعض الحقيقة ـ .. لم تعد هناك امال جديدة .. ماذا اريد .. ماذا استطيع ان افعل غير ان انتظر .. ولا أصعب على ولا امر من ان انتظر ..

هو السجن .. هو الزنزانة .. هو الاغلال .. هو الانتظار .. وهو الشىء الذى لم اقبله !!

وصمت .. صمتا كئيبا طويلا .. اغرورقت عيناه خلالها بالدموع ثم اشعل سيجارته من جديد .. وهو يقول : وكيف يفعل الآخرون امثالى ؟.. هل هم ينتظرون « ايضا » ؟! وضحك فجاة وهو يتذكر الشارع .. والذين عرفهم فى الشارع .. وفى حياته من اصحاب المطاعم والمقاهى والباعة من طراز « كل عيشك » انهم لا يدرون .. لا يعرفون لا يدركون شيئا مما يعانونه ومما اعانيه ، ولو انهم ادركوا او عرفوا او دروا شيئا ... واستسلموا مبتهجين .. فانهم بلهاء حقا .. اغبياء حتما .. يستحقون ان يموتوا موت النمل الموقوت بخطوات رجل سريع الخطوات على الارض ..

وبخطى ثقيلة .. ترك الحديقة .. وهو يتلفت فيها ليجمعها كلها فى ذاكرته .. وكان يودعها لآخر مرة .. ودلف الى مكتبه .. واخذ ورقة وقلما ليكتب الى زوجته :

كل الحقوق محفوظة للشركة التونسية للتوزيع

© · S.T.D. Société Tunisienne de Diffusion - Tunis

عياد بن حسين

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 02904 6490
PJ7846.A5487 A5 1978
Anin al-'¿

PJ
7846
.A5487
A5
1978
c.1